المركز الجامعي- بريكة

معهد: العلوم والإنسانية والاجتماعية

قسم: العلوم الإنسانية

مطبوعة بيداغوجية في مقياس الدولة العثمانية والمشرق العربي 1516- 1914

موجهة لطلبة السنة الثالثة تاريخ

إعداد الدكتور:

فيصل مبرك

السنة الجامعية : 2019- 2020م

المركز الجامعي- بريكة

معهد: العلوم والإنسانية والاجتماعية

قسم: العلوم الإنسانية

مطبوعة بيداغوجية في مقياس الدولة العثمانية والمشرق العربي 1516- 1914

موجهة لطلبة السنة الثالثة تاريخ

إعداد الدكتور:

فيصل مبرك

السنة الجامعية : 2019- 2020م

باسم الله الرحمن الرحيم

محتوى المطبوعة:

المحاضرة الأولى: أصل العثمانيين وبداية تكتلهم وانخراطهم في شؤون السياسة والملك

محاضرة الثانية: سياسة عثمان بن أرطغرل وخلفاؤه اورخان ومراد الأول وبايزيد الداخلية والخارجية

المحاضرة الثالثة: فتح القسطنطينية 1453م

المحاضرة الرابعة: فتوحات الدولة العثمانية وحروبها في العراق

المحاضرة الخامسة: معركة مرج دابق (922هـ – 1516م) والسيطرة العثمانية على الشام

المحاضرة السادسة: استيلاء العثمانيين على مصر (معركة الريدانية)

المحاضرة السابعة: النظام البيروقراطي العثماني في البلدان العربية

المحاضرة الثامنة: حملة نابليون على مصر والشام

المحاضرة التاسعة: مصر في عهد محمد علي باشا وخلفاؤه من بعده

المحاضرة العاشرة: الدعوة الوهابية وإمارة الشرفاء في الجزيرة العربية

المحاضرة الحادية عشر: القومية العربية في مواجهة الطورانية

المحاضرة الأولى: أصل العثمانيين وبداية تكتلهم وانخراطهم في شؤون السياسة والملك

أصل العثمانيين وزحفهم من بلاد تركستان.

يرجع أصل العثمانيين إلى قبائل الأتراك، وهي عدة طوائف ؛ أهمهم الغز أو الأوغوز الذين ينتمي إليهم السلاجقة والعثمانيون، الذين سكنوا المناطق الواسعة في آسيا بين سيبيريا شمالا إلى إيران وباكستان والهند والتبت في الجنوب، فهي واقعة بين الصحراء المنغولية شرقا إلى بحر قزوين غربا، ومعنى تركستان هي البلاد الناطق سكانها باللغات التركية، والتي كانت منطلق كل الهجرات التركية في نهاية العصر القديم وبداية العصور الوسطى، وتجدر الإشارة إلى أن دولة تركستان الوم تختلف عن بلاد تركستان في التاريخ الوسيط والقديم، وذلك أن تركستان منطقة جغرافية واسعة ليس لها حدود واضحة كانت تربط أوروبا بشرق آسيا لمئات من السنين، وكان العديد من طرق التجارة القديمة يخترق المنطقة بما في ذلك طريق ماركو بولو الذهبي . فتركستان على العموم ثلاثة أقاليم كبرى:

تركستان الغربية: تقع بين بحر قزوين وسلسلة جبال تيان شان. وتضم إليها كلا من جمهوريات كَازاخْستان وطاجكستان وتَرْكْمانستان وكورجستان وأوزبكستان. وأهم المدن فيها هي طَشْقَندْ وألما آتا وقارأغانداَ وبشكيك ودوشنبي وسَمَرَقَندْ.

تركستان الصينية: تسمى كذلك تركستان الشرقية، وتقع في قلب قارة آسيا، وتمتد شرقا من تركستان الغربية إلى صحراء جوبي والتبت. وتحد هذه المنطقة سلسلة جبال تيان شان من الشمال وجبال كونلون من الجنوب، وتركستان الصينية التي تمثل جزءا من إقليم سينكيانج الصيني ذات مناخٍ قاس جاف، وسكانها من أصل تركي ويسمون اليغوريين، ويعيشون على الزراعة وتربية الحيوانات الأليفة والتجارة، وغالبيتهم من المسلمين، وأهم المدن هي أورومجي وهَاميْ وكَارامِيْ وكَاشيْ وينْينغْ.

تركستان الأفغانية: يحدها شمالا نهر آمو داريا (أوكْسَسْ) وتركستان الغربية من جهة الشمال الغربي. وقد حكم زعماء الأوزبك هذه المنطقة لفترات طويلة، قبل أن تستحوذ عليها أفغانستان.

وهذا الجزء من تركستان الجنوبية يكون المقاطعة المسماة مزار شريف .والجبال العديدة في منطقة تركستان الأفغانية غنية بالنحاس والحديد والرصاص والذهب. وينحدر السكان بشكل أساسي من أصول فارسية وأوزبكية وكذا تركية[1] .

الملحق المرفق 01: خريطة توضح معالم وحدود بلاد تركستان

المصدر: مجلة المجتمع الرقمية

أما العثمانيون فينتمون إلى قبيلة قايي[2] إحدى القبائل التركية التي كانت تعيش في تركستان بأواسط آسيا حيث مناطق الإستبس الرعوية، وهم جنسٌ يتسمون بقوة الأجسام وبراعة القتال

[1] أحمد الشويخات وآخرون، الموسوعة العربية العالمية، أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 2004، أنظر مادة تركستان.

[2] كلمة قايي تعني "الشخص الذي لديه القوة والسلطة".

والأنفة، ويفتقرون إلى الثقافة والحضارة، ويعيشون حياة قبلية ويتبعون زعماءَهم في نظام عشائري بدوي[1].

وارتبط ظهور العثمانيين في التاريخ بالغزو المغولي الذي اجتاحَ بلادَ الشرق الإسلامي؛ ومنها تركستان، واضطرت بعض قبائل الترك إلى الرحيل أمام هجمات المغول الوحشية، ومذابحهم الجماعية لشعوب هذه المناطق، ووصلتْ إحدى قبائل الغز إلى هضبة الأناضول التي تعرف أيضا بآسيا الصغرى (وهي تمثل الآن الجانبَ الأكبر من الشطر الآسيوي لدولة تركيا الحالية) [2].

يعتبر أرطغرل بن سليمان شاه من أشهر القادة الأوغز، الذي ارتحل مع عشيرته إلى مدينة إرزينجان، وكانت مسرحا للقتال بين السلاجقة والخوارزميين، فالتحق بخدمة السلطان علاء الدين سلطان قونية، إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة السلاجقة العظام، وسانده في حروبه ضد الخوارزميين، فكافأه السلطان السلجوقي بأن أقطع عشيرته بعض الأراضي الخصبة قرب مدينة أنقرة[3]، وظل أرطغرل حليفا للسلاجقة حتى أقطعه السلطان السلجوقي منطقة في أقصى الشمال الغربي من الأناضول على الحدود البيزنطية، في المنطقة المعروفة باسم" سوغوت " حول مدينة أسكي شهر، حيث بدأت العشيرة هناك حياة جديدة إلى جانب إمارات تركمانية سبقتها إلى المنطقة.

---

[1] أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ الإسلامي، ط2، دار الشروق، القاهرة، 1993، ص ص12، 13.

[2] محمد عبد الحميد الرفاعي، قيام الدولة العثمانية واتساعها، موقع طريق الإسلام، 27/ 11/ 2013.
https://ar.islamway.net/article/19141
للمزيد وتفاصيل أكثر راجع: يحي بن حمزة الوزنة، مدينة مؤو والسلاجقة حتى عصر سنجر، مؤسسة KITAB INC للنشر.

[3] عبد القادر توفيق الشلبي الطرابلسي ، الدر الحسان في فضائل سلاطين عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971، ص100 وما يليها.

الدولة السلجوقية: أقامتها أسرة تركية إسلامية حكمت إيران والعراق وسوريا وآسيا الصغرى خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد. تنسب إلى سلجوق زعيم عشائر الغز التركمانية، التي هاجرت واستقرت في بخارى. استولى أحد أحفاد سلجوق وهو طغْرل بك على إقليم خراسان سنة 429هـ، 1037م .ولما ضعف البويهيون في بغداد وكان قد اشتد ظلمهم للخلفاء استدعى الخليفة العباسي ببغداد، القائم بأمر الله طغْرل بك لإنقاذه من البويهيين. فزحف طغرل بك على بغداد وقضى على البويهيين، ونصبه الخليفة ملكا وسلمه السلطة الزمنية على البلاد عام447 هـ، 1055م[1].

الملحق المرفق رقم 02: قائمة السلاطين السلاجقة

اللقب	الميلاد	الوفاة	اسم الحكم
ركن الدنيا والدين	990	4سبتمبر 1063	طغرل بك (1037–1063)
ضياء الدين عضد الدولة	20يناير 1029	15ديسمبر 1072	ألپ أرسلان (1063–1072)
معز الدين جلال الدولة	1055	19نوفمبر 1092	ملك شاه الأول (1072–1092)

[1]توفي مَلكْشاه سنة 485هـ، 1092م، ونتج عن هذا التنازع بين أبناء الأسرة السلجوقية؛ فاستقل سليمان بن قطلمش بآسيا الصغرى، وأسس فيها سلطنة السلاجقة الروم، والتي شهدت مولد قوة الأتراك العثمانيين، واستطاع الأتابكة القائمون على أمر تربية أبناء السلاجقة انتزاع مقاليد الأمور من السلاجقة وأسسوا دويلات عرفت باسم الدويلات الأتابكية، ومن أشدها دولة الأتابك عماد الدين زنكي في الموصل، وهي التي اشتهرت بالجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.، أنظر: حمد محمد مهدي الشويخات وآخرون، مرجع سابق، أنظر مادة الدولة السلجوقية.

ناصر الدنيا والدين	1087	1094	محمود الأول (1092–1094)
ركن الدنيا والدين	1181	1105	بركياروق (1094–1105)
ركن الدنيا والدين جلال الدولة	?	?	ملك شاه الثاني (1105)
غياث الدنيا والدين	جانفي 1082	أفريل1118	(1105–1118)
مغيث الدنيا والدين جلال الدولة	1105	1131	محمود الثاني (1118–1131)
معز الدنيا والدين عضد الدولة	1085	8ماي 1157	سنجر (1118–1153)
غياث الدنيا والدين	?	?	داوود (1131–1132)
ركن الدنيا والدين	1109	نوفمبر 1134	طغرل الثاني (1132–1134)[7]

غياث الدنيا والدين	1108	13سبتمبر 1152	مسعود (1134–1152)
معين الدنيا والدين	?	1160	ملك شاه الثالث (1152–1153)
ركن الدنيا والدين	1128	ديسمبر 1159	محمد شاه (1153–1159)
غياث الدنيا والدين	?	1161	سليمان شاه (1159–1161)
معز الدنيا والدين	?	1176	أرسلان شاه (1161–1176)
ركن الدنيا والدين	1168	1194	طغرل الثالث (1176–1191)
مظفر الدنيا والدين	?	1191	قزل أرسلان (1191)
ركن الدنيا والدين	1168	1194	طغرل الثالث (1192–1194)

موقعة ملاذكرد: وقعت معركة ملاذكرد بين جيش السلاجقة المسلمين بقيادة السلطان ألب أرسلان، وجيش الدولة الرومية بقيادة إمبراطورها رومانوس عام 463هـ، 1071م. وترجع أسبابها

إلى تمكن السلطان السلجوقي ألب أرسلان في مدة قصيرة من الاستيلاء على معظم البلاد النصرانية المجاورة مثل: جورجيا وبلاد الأرمن. وعمل على نشر الإسلام في هذه المناطق، فكان طبيعيا أن يغضب هذا إمبراطور الروم رومانوس (يوجينس)، فصمم على غزو الشام. فجمع جيشا جرارا يضم أخلاطا من الشعوب النصرانية، تضم الروس والفرنسيين والبلغاريين واليونانيين والجورجيين، وسار بهم إلى أن عسكر في نواحي ملاذكرد بالقرب من مدينة أخلاط في آسيا الصغرى[1].

توفي مَلكْشاه سنة 485هـ، 1092م، ونتج عن هذا التنازع بين أبناء الأسرة السلجوقية؛ فاستقل سليمان بن قطلمش بآسيا الصغرى، وأسس فيها سلطنة السلاجقة الروم، والتي شهدت مولد قوة الأتراك العثمانيين، واستطاع الأتابكة القائمون على أمر تربية أبناء السلاجقة انتزاع مقاليد الأمور من السلاجقة وأسسوا دويلات عرفت باسم الدويلات الأتابكية، ومن أشدها دولة الأتابك عماد الدين زنكي في الموصل، وهي التي اشتهرت بالجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.

كان سليمان أحد أبناء القبيلة يهيم بقبيلته في آسيا الصغرى بعد موقعة ملاذكرد، وقتل سليمان عند مشارف حلب، وترددت القبيلة بين العودة لموطنها الأصلي، ومواصلة المغامرة، وانقسمت القبيلة في ذلك، فاختار ابنه أرطغرل مواصلة السير، فدخل آسيا الصغرى والتحق بخدمة الأمير السلجوقي علاء الدين الثاني الذي كان يواصل الحرب ضد البيزنطيين، وساعده في هذا الكفاح، فأعطاه السلطان السلجوقي المستنقعات الواقعة على الحدود البيزنطية، وترك له توسيع ممتلكاته على حساب البيزنطيين، فاتخذ شكور عاصمة له، وأصبح ابنه عثمان ملازما له في حروبه وأعماله الإدارية. وفي هذه الأثناء كانت الحروب الصليبية مشتعلة فشغلت جانبا كبيرا من نشاط البيزنطيين مما أتاح فرصة الاستقرار للعثمانيين.

وفي خضم هذا الحراك السياسي الكثيف؛ علا شأن أرطغرل لدى السلطان علاء الدين بعد أن أثبت إخلاصه للسلاجقة، وأظهرت عشيرته كفاءة قتالية عالية في كل معركة ووجدت دوما في

---

[1] المرجع نفسه، أنظر مادة ملاذكرد.

مقدمة الجيوش وتم النصر على يدي أبنائها فكافأه السلطان بأن خلع عليه لقب "أوج بكي"، أي محافظ الحدود، اعترافا بعظم أمره، غير أن أرطغرل كان ذا أطماع سياسية بعيدة، فلم يقنع بهذه المنطقة التي أقطعه إياها السلطان السلجوقي، ولا باللقب الذي ظفر به، ولا بمهمة حراسة الحدود والحفاظ عليها؛ بل شرع يهاجم باسم السلطان ممتلكات البيزنطيين في الأناضول، فاستولى على مدينة أسكي شهر وضمها إلى أملاكه، واستطاع أن يوسع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها كأمير على مقاطعة حدودية، وتوفي في سنة 1281م عن عمر يناهز التسعين عاما، بعد أن خلع عليه لقب كبير آخر هو "غازي"، تقديرا لفتوحاته وغزواته[1].

كان من مآثر السلاجقة تمسكهم الشديد بالإسلام، وميلهم القوي إلى أهل السنة والجماعة. ووصل المسلمون في عهدهم إلى درجة عظيمة من التقدم في كثير من علوم الحضارة، وازدهرت في عهدهم الفنون بجميع أنواعها.

علاقة القبائل الأوغوز والقايي بالسلاجقة

تدخل الاتراك الأوغوز في الصراع القائم بين سلاجقة الروم والبيزنطيين، فناصروا السلاجقة، ولقد تمكن السلطان عثمان بن أرطغرل من الاستيلاء على بعض القلاع والحصون البيزنطية في وسط آسيا الصغرى، فكافأ علاء الدين السلجوقي عثمان بأن رفعه إلى مرتبة الأمراء، وسمح له بالتوسع على حساب البيزنطيين[2].

---

[1] نواف أحمد عبد الرحمن، الموجز في التاريخ الإسلامي، دار المناهل، د.م، 2015، ص2017.

[2] أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط، 1991، ص128.

حارب أرطغرل إلى جانب علاء الدين السلجوقي في أكثر وقائعه الحربية ضد المغول والدولة البيزنطية، فمنح السلطان علاء الدين أراض واسعة لأرطغرل وقومه، وفتح أرطغرل بلدة (صيراجق) التابعة للقسطنطينية، وسميت: سلطانية، وفتح بلدة سوغوت، التي تعتبر مهد الدولة العثمانية في الأناضول، وحرر قلعة كوتاهية السلجوقية من المغول، وظل أرطغرل يقاتل ضد المغول والروم البيزنطيين إلى جانب علاء الدين السلجوقي حتى تجاوز سن الثانية والتسعين، وقيل السادسة والتسعين، وقيل أنه ولد سنة 587 هـ/ 1191م، وتوفي سنة 680هـ/ 1281م، فدفن في بلدة سغوْت (Sügüt) [1].

نهاية سلاجقة الأناضول:

بعد وفاة أرطغرل قام السلطان علاء الدين السلجوقي بتنصيب الأمير عثمان مكانه، فتابع طريق الجهاد بشجاعة خارقة، فكافأه السلطان علاء الدين، وكرمه بإعطائه شارات السلاجقة، وهي الراية البيضاء والخلعة والطبل، ومنحه استقلالا، ولقب بك، وقرر منحه ما يفتحه من أرضي البيزنطيين وغيرهم ابتداء من سنة 688 هـ/ 1289م، وسمح له بأن يضرب السكة النقدية باسمه، وبذكر اسمه بعد اسم السلطان علاء الدين من على منابر المساجد والجوامع السلجوقية.

ونشأت صداقة بين عثمان الأول، والقائد البيزنطي كوسه ميخائيل حاكم قلعة (خرمن قايا) الذي أسلم، وأنقذ عثمان من مؤامرة بيزنطية دبرت له في وليمة عرس بيزنطي، وفي تلك الأثناء هاجم الخبيث قازان المغولي المدن السورية، ومدينة قونية، فاحتلها سنة 699هـ/ 1299م، وأنهى دولة سلاجقة الأناضول[2].

---

[1] محمود السيد الدغيم، مختصر التاريخ العثماني منذ سليمان شاه حتى محمد الفاتح، 13/ 09/ 2006.
https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=82112

[2] محمود السيد الدغيم، مرجع سابق.

محاضرة الثانية: سياسة عثمان بن أرطغرل وخلفاؤه اورخان ومراد الأول وبايزيد الداخلية والخارجية

بعد أرطغرل تولى زعامة الإمارة ابنه البكر **عثمان**، فأخلص الولاء للدولة السلجوقية على الرغم مما كانت تتخبط فيه من اضطراب وما كان يتهددها من أخطار، أظهر عثمان في بداية عهده براعة سياسية في علاقاته مع جيرانه، فعقد تحالفات مع الإمارات التركمانية المجاورة، ووجه نشاطه العسكري نحو الأراضي البيزنطية لاستكمال رسالة دولة سلاجقة الروم بفتح الأراضي البيزنطية كافة، وإدخالها ضمن الأراضي الإسلامية، وشجعه على ذلك حالة الضعف التي دبت في جسم الإمبراطورية البيزنطية وأجهزتها، وانهماكها بالحروب في أوروبا، فأتاح له ذلك سهولة التوسع باتجاه غربي الأناضول، وفي عبور الدردنيل إلى أوروبا الشرقية الجنوبية .ومن الناحية الإدارية، فقد أظهر عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته، بحيث قطع العثمانيون في عهده شوطا كبيرا على طريق التحول من نظام القبيلة المتنقلة إلى نظام الإدارة المستقرة، ما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها سريعا إلى دولة كبرى[1]، وقد أبدى السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث تقديره العميق لخدمات عثمان، فمنحه لقب "عثمان غازي حارس الحدود العالي الجاه، عثمان باشا"[2].

أقدم عثمان بعد أن ثبت أقدامه في إمارته على توسيع حدودها على حساب البيزنطيين، ففي عام1291 م فتح مدينة "قره جه حصار" الواقعة إلى الجنوب من سوغوت، وجعلها قاعدة له، وأمر بإقامة الخطبة باسمه، وهو أول مظهر من مظاهر السيادة والسلطة، ومنها قاد عشيرته إلى بحر مرمرة والبحر الأسود، وحين تغلب المغول على دولة قونية السلجوقية، سارع عثمان إلى إعلان استقلاله عن السلاجقة ولقب نفسه "پاديشاه آل عثمان" أي عاهل آل عثمان، فكان بذلك

---

[1] نواف أحمد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص218.

[2] المرجع نفسه، ص218.

المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التركية الكبرى التي نسبت إليه لاحقا. وظل عثمان يحكم الدولة الجديدة بصفته سلطانا مستقلا حتى تاريخ 6 أبريل سنة1326 م، الموافق فيه 2 جمادى الأولى سنة726 هـ، عندما احتل ابنه" أورخان "مدينة بورصة الواقعة على مقربة من بحر مرمرة، وفي هذه السنة توفي عثمان عن عمر يناهز السبعين عاما، بعد أن وضع أسس الدولة ومهد لها درب النمو والازدهار، وخلع عليه لقب آخر هو "قره عثمان"، وهو يعني "عثمان الأسود "باللغة التركية الحديثة، لكن يقصد به "الشجاع" أو "الكبير" أو "العظيم" في التركية العثمانية [1].

الملحق المرفق رقم 03: صورة لعثمان خان الأول

[1] محمد فريد بك، تاريخ الدولة العثمانية العلية، KTAB INC، 2014، ص50 وما يليها.

السلطان الغازي أورخان الأول:

أورخان بن عثمان (1288-1359م) ثاني سلاطين الدولة العثمانية. تولى السلطة بعد أبيه عثمان سنة 717هـ/ 1316م. كان ذا شخصية إدارية تنظيمية، قسم شؤون الدولة بين أخيه علاء الدين وولديه سليمان ومراد، وانصرف هو إلى الجهاد العسكري، وكان من أبرز مواقعه العسكرية هزيمته للإمبراطور اندرونيك الثالث (1318-1341م) في موقعة "مالدبيه" سنة 720هـ /1319م، واستولى على نيقية سنة721 هـ/ 1320م، وتعرف الآن باسم برازنيق، وعلى نيقوميديا . بوابة الطريق إلى البوسفور، وذلك كان عام 718هـ/ 1317م. كما سيطر على ثغر غاليبولي ذي المركز الاستراتيجي المهم[1].

الملحق المرفق رقم 03: صورة للسلطان أورخان الأول

[1] أحمد الشويخات وآخرون، مرجع سابق، أنظر مادة أورخان.

وصل إلى أحد أهم مفاتيح وأبواب أوروبا؛ بحر مرمرة . سنة 759هـ – 1357م، سيطر على شبه جزيرة بثينية في أقصى الشمال، وعلى قلعتي شمندرة وأيدوس، وهما بوابتا الطريق الحربي بين القسطنطينية ونيقوميديا. وتوسع على حساب الإمارات الصغيرة التي انقسمت إليها دولة السلاجقة في الأناضول[1].

أسست في عهد أورخان أول دار لسك النقود سنة 728هـ – 1328م، وحلت النقود العثمانية محل النقود السلجوقية. وأسس عام 721هـ–1320م فرق الإنكشارية، كما أسس مساجد ومدارس كثيرة، مات ودفن إلى جانب أبيه في بروسة.

عني أورخان بتنظيم مملكته تنظيما محكما، فقسمها إلى سناجق أو ولايات، وجعل من بورصة عاصمة لها، وضرب النقود باسمه، ونظم الجيش، فألف فرقا من الفرسان النظاميين، وأنشأ من الفتيان المسيحيين الروم والأوروبيين الذين جمعهم من مختلف الأنحاء جيشا قويا عرف بجيش الانكشارية. وقد درب أورخان هؤلاء الفتيان تدريبا صارما وخصهم بامتيازات كبيرة، فتعلقوا بشخصه وأظهروا له الولاء. وعمل أورخان على توسيع الدولة، فكان طبيعيا أن ينشأ بينه وبين البيزنطيين صراعٌ عنيف كان من نتيجته استيلاؤه على مدينتي إزمير[2]ونيقية [3]، وفي عام1337 م شن هجوما على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين نفسها، ولكنه أخفق في احتلالها.

ومع ذلك فقد أوقعت هذه الغزوة الرعب في قلب إمبراطور الروم "أندرونيقوس الثالث"، فسعى إلى التحالف معه وزوجه ابنته. ولكن هذا الزواج لم يحل بين العثمانيين وبين الاندفاع إلى الأمام، وتثبيت أقدامهم سنة 1357 م في شبه جزيرة غاليبولي، وهكذا اشتد الخطر العثماني

---

[1] المرجع نفسه.

[2]إزمير هي الميناء الرئيسي لدولة تركيا في جزئها الآسيوي. كانت إزمير تحظى بمكانة العاصمة حيث بلغ عدد سكانها في عام 2004 حوالي 4,061,000 نسمة, إزمير هي مدينة مجاورة لشاطئ خليج إزمير, الذي هو امتداد لبحر إيجة.

[3]هي مدينة إغريقية قديمة تقع على الساحل الغربي للأناضول على بحر مرمرة تسمي إزنيق حديثا، اشتهرت بأهميتها في تاريخ المسيحية لوقوع مجمع نيقية بها والذي ينصب إليه معظم العقائد المسيحية مثل قانون الإيمان النيقي.

على القسطنطينية من جديد. شهد المسلمون في عهد أورخان أول استقرار للعثمانيين في أوروبا، وأصبحت الدولة العثمانية تمتد من أسوار أنقرة في آسيا الصغرى إلى تراقيا في البلقان، وشرع المبشرون يدعون السكان إلى اعتناق الإسلام .توفي أورخان الأول في سنة 1360 م بعد أن أيد الدولة الفتية بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة، وتولى بعده ابنه "مراد الله"، الملقب بمراد الأول .

مراد الأول (؟ – 791هـ، ؟ – 1388م):

السلطان مراد الأول بن السلطان أورخان بن عثمان الأول بن أرطغرل، ثالث سلاطين الدولة العثمانية، تولى السلطة بعد والده أورخان عام 762هـ، 1360م، مضى في سياسة الفتح الإسلامي في أوروبا وآسيا الصغرى في وقت واحد. استولى على أدرنة سنة 762هـ، 1360م، وهي المدينة الثانية بعد القسطنطينية من حيث الأهمية في الدولة البيزنطية، واتخذها عاصمة له سنة768 هـ، 1366م. وانطلق بجيشه في أقاليم مقدونيا، فاستولى على قاردار وأسكي زاجرا، وبني زاجرا وقيليبوبوليس وغيرها. ودانت له جميع أجزاء تراقيا تقريبا.

الملحق المرفق رقم 04: لوحة تصويرية لمراد الأول

تحركت أوروبا ضده فدعا البابا أوربان الخامس (764 – 772هـ، 1362 – 1370م) إلى حرب ضد العثمانيين، ولم يستجب له سوى المجر وحكام شبه جزيرة البلقان وبخاصة الصرب والبلغار، لقربهم من الخطر. والتقى الجمعان قرب تشيرمن على نهر ماريتزا، فانهزم الحلفاء، وفر الأميران الصربيان وغرقا في النهر، ونجا ملك المجر بأعجوبة.

أتاح هذا الانتصار للعثمانيين استكمال فتح إقليم تراقيا ومقدونيا، ووصلوا إلى جنوبي بلغاريا وشرقي صربيا. وتكون حلف بلقاني جديد عام 789هـ، 1387م بزعامة لازار ملك الصرب، لصد العثمانيين، وهزم العثمانيين في معركة بلوشنيك عام 789هـ، 1387م، حينما كان مراد غائبا في آسيا الصغرى فزحف إلى أوروبا، والتقى بالحلف في معركة قوصوة الأولى المشهورة، وهزم الحلفاء، واستولى على بلاد الصرب، التي دخلت منذ ذلك الوقت في الإسلام. غدر به جندي صربي جريح، فقتله، فقتل العثمانيون كثيرين منهم بمن فيهم لازار، ثأرا لمقتل سلطانهم مراد[1].

كانت فاتحة أعمال مراد الأول احتلال مدينة أنقرة مقر إمارة القرمان، وذلك أن أميرها واسمه علاء الدين، أراد انتهاز فرصة انتقال الملك من السلطان أورخان إلى ابنه مراد لإثارة حمية الأمراء المجاورين وتحريضهم على قتال العثمانيين ليقوضوا أركان ملكهم الآخذ في الامتداد يوما فيوما، فكانت عاقبة دسائسه أن فقد أهم مدنه[2]. وتحالف مراد مع بعض أمراء الأناضول مقابل بعض التنازلات لصالح العثمانيين، وأجبر آخرين على التنازل له عن ممتلكاتهم، وبذلك ضم جزء من الممتلكات التركمانية إلى الدولة العثماني، ثم وجه اهتمامه نحو شبه جزيرة البلقان التي كانت في ذلك الحين مسرحا لتناحر دائم بين مجموعة من الأمراء الثانويين، ففتح مدينة أدرنة سنة 1362م ونقل مركز العاصمة إليها لتكون نقطة التحرك والجهاد في أوروبا، وقد ظلت عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية في وقت لاحق، كما تم فتح عدة مدن أخرى مثل صوفيا وسالونيك، وبذلك

---

[1] أحمد الشويخات وآخرون، مرجع سابق، أنظر مادة مراد الأول.

[2] محمد فريد بك، مرجع سابق.

صارت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جهة في أوروبا، وفي 12 يونيو سنة1385 م، الموافق فيه 19 جمادى الآخرة سنة791 هـ، التقت الجيوش العثمانية بالقوى الصربية – تساندها قوى من المجر والبلغار والألبانيين – في إقليم" قوصوة"، المعروف حاليا باسم" كوسوڤو"، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة انتصر فيها العثمانيون[1]، إلا أن السلطان قتل في نهايتها على يد أحد الجنود الذي تظاهر بالموت[2].

بايزيد الأول (748– 805هـ، 1347– 1402م):

اتفق أركان الدولة من أعيان وقادة عسكريين على تولية السلطان بايزيد الأول، الذي كان له أخ أصغر منه يسمى يعقوب، هذا الأخير له شجاعة فائقة وإقدام منقطع النظير، مع علو الهمة والطموح العالي، فشكل يعقوب خطرا على وحدة البلاد، في حال ادعى الملك لنفسه وشق عصى الطاعة على إخوته، فحيكت ضده مؤامرة قادها رجالات الدولة النافذين في ذلك الوقت، وقيل أن قتله كان انطلاقا من فتوى شرعية صدرت عن بعض علماء الوقت حينها على اعتبار أن الفتنة التي سوف يحدثها خروجه عن الطاعة أشد من قتله والتخلص منه[3].

يعتبر بايزيد الأول رابع السلاطين العثمانيين، وقد ولقب بالصاعقة لشجاعته وسرعة تحركه للانقضاض على أعداءه، خلف والده السلطان مرادا الأول في الحكم عام (791هـ، 1388م)، وواصل على منوال سياسته في الغزو والتوسع الإقليمي في الجبهتين الأناضولية والبلقانية في آن واحد، ومن أجل تحقيق هذا الهدف؛ رأى أن يقيم علاقات ودية مع ما تبقى من دولة الصرب، لتكون الصرب حاجزا بينه وبين دولة المجر، وليؤمن ظهره حين التوسع في آسيا الصغرى، فعقد هدنة من

---

(1) رائد سامي حميد موسى الدوري، الدولة العثمانية في عهد السلطان مراد الأول 760-791هـ/1359-1389م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة تكريت، 2011، ص 105 وما يليها.

(2) محمد نامق كمال، فاتحة الفتوحات العثمانية، تعريب عبد الله المخلص، المطبعة الوطنية، حيفا، 1909، ص04.

(3) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981، ص137.

حاكم الصرب على أن تقدم له جزية سنوية وعددا معينا من الجنود، كما أقدم على مصاهرة البيت الحاكم في الصرب، وبهذه السياسات المتراوحة بين الغزو والفتوحات وبين ربط العلاقات؛ وصلت دولته إلى بحر إيجه، كما أطل على البحر الأبيض المتوسط وكذا البحر الأسْود[1].

الملحق المرفق رقم 05: لوحة فنية للسلطان بايزيد الأول

من أهم الأعمال التي تنسب إليه؛ أنه تمكن من أخذ موافقة السلطان العباسي في مصر على اعتماده سلطانا، كما سقطت في يده مدينة تيرنوفو البلغارية، وأعدم ملك بلغاريا عام (796هـ، 1393م)، وبذلك أنهى استقلال بلغاريا، وأسلم سيشمان ابن الملك البلغاري، فعينه بايزيد في منصب إداري كبير في إحدى مدن الأناضول.

[1] أحمد الشويخات وأخرون، مرجع سابق، أنظر مادة بايزيد الصاعقة.

أحدث سقوط بلغاريا دويا هائلا في أوروبا؛ فدعا سيجسموند ملك المجر والبابا بونفيس التاسع (792 - 807هـ، 1389-1404م)، إلى تأسيس أكبر حلف أوروبي لمواجهة العثمانيين في القرن الثامن الهجري. الرابع عشر الميلادي، وزحفت قوات الحلف الصليبي حتى التقت بجيش بايزيد في معركة نيكوبوليس عام 798هـ، 1396م، فتمكن بايزيد والقوة العثمانية من دحرهم، كما واصل بايزيد فتوحاته متوجها الى القسطنطينية هذه المرة ليضرب عليها حصارا طويلا، غير أنه رفعه عندما علم بتقدم المغول تجاه آسيا الصغرى بقيادة تيمور لنك، ولهذا وقع معاهدة مع حاكم القسطنطينية في شكل صلح مؤقت ليرفع بايزيد الحصار على المدينة مقابل دفعها لعشرة آلاف عملة مسكوكة ذهبية سنويا، وأن يجيز للمسلمين أن يبنوا بها جامعا لإقامة شعائرهم الدينية، وإقامة محكمة شرعية للنظر في قضايا المسلمين من أهل المدينة وكذا الرعايا المسلمين[1]، وفي الأخير التقى بايزيد بالمغول في معركة أنقرة عام (805هـ، 1402م)، فهزموه وأسروه، ومات في الأَسْر، في تفاصيل سنتعرض لها في المحاضرة الموالية.

نتائج الغزو التتري على البلاد العربية:

كان تيمور لنك يحكم دولةَ التتار في وسط آسيا وبلاد الفرس، واستطاعَ أن يوسعَ دائرةَ ملكه، فاستولى على بلاد الأفغان والهند في الشرق، ثم اتجه غربا فاستولى على جورجيا وأرمينيا وكردستان، وأصبح وجها لوجهٍ أمام دولتي المماليك والعثمانيين، وقد اجتاح كثيرا من مدن الشام، حتى دخل حلب ودمشق سنة (802هـ/ 1401م، ووصل إلى بغداد في سنة 1402م، ومنها إلى سهول أنقرة سنة[2].

---

[1] محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص144.

[2] أحمد الشويخات، مرجع سابق، أنظر مادة: تيمورلنك.

الملحق المرفق رقم 06: منمنمة تيمورلنك في معركة أنقرة

وكان اللقاء الكبير بين القوتين المعروفتين بالشدة والبأس، وتلاحمت الصفوف وتقارعت السيوف، واستمر القتال، وتساقطَ الأبطال، واستبسلَ السلطان بايزيد نهارا بأكمله أو يزيد، من مشرق الشمس إلى مغربها، غير أن الدائرة دارت عليه وانضم من معه من أصولٍ تترية، وبعض الإمارات التركية التي أذعنتْ لطاعته حديثا إلى صفوف عدوه تيمور، وإذا برحى الحرب عليه تدور، واستشهد ابنه مصطفى حلبي، ولاذ بعض رجاله بالفرار، وبقي في المعركة فردا، ولم يكن من وقوعه في الأسر بد، وسيق إلى سمرقند مكبلا، وبقي فيها حتى مات كمدا، ثم نقلت جثته إلى بروسة؛ حيث دفن بجوار قبر أبيه[1].

وكان من نتائج هزيمة "أنقرة "هذه أن فقَد العثمانيون معظمَ قوتهم العسكرية، وانكمشوا حينا، وفرتْ كثيرٌ من العائلات التركية من المناطق الآسيوية إلى المناطق الأوربية خوفا من التتار، حتى أصبحَ عدد الأتراك بأوروبا أكثر من الأناضول، وساعدَ ذلك على انتشار الإسلام في هذه المناطق، وتوقفتْ

[1] محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص147.

خطط العثمانيين للتوسع في أوربا، وأصبحت القسطنطينية في مأمنٍ من هجماتهم، وتأخرَ سقوطها حوالي نصف قرن[1].

وابتهج العالَم الأوربي المسيحي بما نال العثمانيين، وهللوا لانتصار التتار، حتى إن بعضَ ملوك أوربا – مثل هنري الرابع ملك إنجلترا – أرسلوا إلى تيمور لنك يدعونَه إلى التحول عن الإسلام واعتناق النصرانية، على أن يعترفوا به زعيما للعالم المسيحي.

وفقد العثمانيون معظمَ ممتلكاتهم في آسيا، واستقلت البلغار والصرب في أوربا، وأمر الإمبراطور البيزنطي بهدم المساجد التي بنيتْ في القسطنطينية، وطرد أئمتها وعلمائها ورعايا العثمانيين الموجودين هناك.

وقد توفي تيمور عقب ذلك في "أورناوة "ببلاد التركستان في السابع عشر من شعبان سنة (807هـ/ 19 من فبراير سنة 1405م)، ووقع الخلاف بين أبنائه، ومن ثَم نجح السلطان العثماني محمد الأول بن بايزيد (805 - 824هـ/ 1402 - 1421م) أن يتغلب على المشكلات الداخلية، ويسترد كل ما فقدته دولته أمام غزو المغول، واتخذَ من مدينة أدرنة عاصمة له، وتمكنَ من إخضاع بلغاريا وصربيا من جديد، وبذلك محا كل أثرٍ لهزيمة أنقرة، وتمكنَ من توحيد دولته من جديد.

وواصل سياسيته ابنه مراد الثاني (824 -855 هـ/ 1421 - 1451م) فركز اهتمامَه على بناء جيشٍ قوي واقتصادٍ سليم، وتأمين المناطق الحدودية.

وشرع السلطان مراد الثاني في استحداث فرقٍ عسكرية من نوعٍ خاص، معدة إعدادا جيدا للقتال؛ عرفت بفرق "الإنكشارية "لتكونَ معتمدة في تحقيق أهدافه التوسعية الطموحة في البلقان،

---

[1] طالب محيبس حسن الوائلي، "هزيمة العثمانيين في أنقرة، دراسة في مقدمات الصدام التتاري"، مجلة كلية التربية، العدد 04، ص144.

وفي مواجهة مخططات إمبراطور القسطنطينية ومكائده؛ إذ كان يساعد المتمردين والثائرين ضد السلطان.

الملحق المرفق رقم 07: صورة لأحد الجنود الانكشارية

وضرب السلطان حصارا قويا حول القسطنطنية لشل حركتها وإضعافها، ثم اتجه إلى ألبانيا والمجر، وتمكن من الاستيلاء على الشطر الجنوبي من ألبانيا، أما الشطر الشمالي منها فقد واجه فيه مقاومة عنيدة، وتكبدتْ جيوشه خسائرَ كبيرة؛ نظرا لطبيعة المنطقة الجبلية الوعرة، وتعرضَ جنوده لحرب العصابات، ومؤازرة البندقية للألبان بالإمدادات عن طريق البحر.

وفي المجر واجه السلطان تحالفا صليبيا من البابا "يوجين "الرابع، وعديدٍ من الدول من بينهم الإمبراطورية البيزنطية، فتمكنوا من إلحاق الهزيمة به في موقعة "نيش "سنة (847هـ/ 1443م)، ولكن عينَ السلطان لم تقر حتى ثأرَ لهزيمته في العام التالي في موقعة "وارنة"؛ وهي ميناء بلغاري يقع على البحر الأسود، وفقدت المجر زهرةَ شبابها وخيرةَ فرسانها، وعجزتْ بعدها عن القيام بأي عملٍ حربي، ويئست القوى الصليبية من التحالف ضد العثمانيين، ولم يجتمعْ بعد ذلك في حربٍ مشتركة ضدهم.

تذكر المصادر التاريخية أن موت بايزيد الأول قد أحدث فوضى عارمة في البلاد، إلى درجة أن الدولة ذاتها تجزأت في عدة دويلات وإمارات صغيرة، كما حصل لدولة السلاجقة حين استقلت الأتابكيات وشكلت حكم الإمارات، وذلك نتيجة لسياسة تيمورلنك الذي أقر حكم الولاة في الدولة العثمانية، بشرط أن تبقى تبعيتهم له، أما على الجبهة الأوروبية؛ فقد استقل كل من الصرب والبلغار، كما أ بناء بايزيد اختلفوا فيما بينهم بخصوص تعيين من يخلفه للجلوس على العرش، فمثلا قام ابنه سليمان بتنصيب نفسه ملكا وقدمه أهل أدرنة وجعلوه سلطانا، بينما محمد بن بايزيد؛ فقد واصل قتاله لتيمورلنك في جبال الاناضول وادعى لنفسه في مدينتي توقات وأماسيا، بينما الابن الثالث عيسى؛ فقد جمع من كان معه من الجنود في مدينة بورصة وعمل على استرجاع جثة أبيه من أجل دفنها مقابل الكثير من التنازلات لصالح تيمورلنك[1].

قام محمد الأول بن بايزيد بمحاربة إخوته وجمع كلمة المسلمين في الدولة العثمانية، ليخلفه ابنه مراد الأول، الذي خلفه ابن محمد الثاني الملقب بالفاتح.

[1] محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص148.

المحاضرة الثالثة: فتح القسطنطينية 1453م

﴿أخبرني عبد الله بن محمد الدورقي ثنا محمد بن إسحاق الإمام ثنا عبدة بن عبد الله الخزاعي، حدثني الوليد بن المغيرة حدثني عبد الله بن بشر الغنوي حدثني أبي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش﴾... **مستدرك الحاكم، كتاب الفتن والملاحم.**

قبل كل شيء يجب ان نتعرف عليه في هذه المحاضرة أن الملك محمد جلبي الملقب بالغازي، وهو محمد الفاتح (833 - 886هـ ، 1429 - 1481م). بن السلطان مراد الثاني، أشهر سلاطين الدولة العثمانية، خلف والده في السلطة عام 855هـ، 1451م، كان ذا ثقافة عالية، واطلاع واسع، تكلم اللغة الفارسية والعربية واليونانية والسلافية، وناصر العلوم الإسلامية، وقرب إليه العلماء والأدباء والشعراء وأجزل لهم العطاء، أوصاه والده بفتح القسطنطينية، فاجتهد ونجح في فتحها عام (857هـ ، 1453م)، ولذا عرف بـ الفاتح لأهمية فتح هذه المدينة، عاصمة الدولة البيزنطية، وأطلق عليها اسم إسلامبول الذي يعني بالتركية: عاصمة الإسلام، وحول كاتدرائية القديسة أيا صوفيا إلى مسجد ما زال يحظى إلى اليوم بالسمعة التاريخية والسياحية.

أدت فتوحاته في أوروبا، وبخاصة في بلاد البلقان إلى جعل بلاد الصرب ولاية عثمانية سنة 864هـ، 1459م، وخضع له إقليم البوسنة سنة (869هـ، 1464م)، ثم إقليم الهرسك سنة 872هـ، 1467م، وانضمت إليه طائفة البوجوميل النصرانية عندما دخل البوسنة، لقرب مبادئهم

من مبادئ الإسلام، واحتل دوقية أثينا، ودانت له معظم بلاد المورة[1] سنة 865هـ/ 1460م. وأقام قلعة حصينة في قلب ألبانيا عام 1478م.

سيطر على كل المحطات التجارية التابعة لجمهورية جنوة في منطقة البحر الأسود، واعترف تتار القرم بالسيادة العثمانية، وحارب البنادقة، ووقع معهم اتفاقية سنة884 هـ، 1479م، تقرر بموجبها أن يدفعوا الجزية للعثمانيين، وتنازلوا عن عدة جزر ومدن، ووصلت جيوشه إلى شواطئ بحر الأدرياتيك، ودخل جنوب إيطاليا. وقضى على مملكة طرابزون النصرانية اليونانية شمالي الأناضول عام 866هـ، 1461م، وأسر ملكها، وقتله سنة 875هـ، 1470م. وتوفي بإسلامبول (إسطنبول)، وهو يعد العدة لفتح روما.

أما مشروع فتح القسطنطينية فقد كان حلم كل الخلفاء والملوك والأمراء المسلمين، منذ زمن الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان، باعتبار أن هذه المدينة هي قاعدة النصارى ومركز قوتهم واتحادهم، كما أن لها مكانة روحية وقدسية مرتبكة ارتباطا وثيقا بالعقيدة النصرانية، لم يتحقق هذا الحلم إلا في زمن السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني، الذي لقب بالفاتح، وذلك في سنة (857هـ/ 1453م)، وبهذا الحدث العظيم تغيرَ وجه التاريخ، وخريطة العالم السياسية، وقد اعتبر المؤرخون المتأخرون هذا الحدث مدخلا لعصر جديد سمي بالتاريخ الحديث.

بنيت القسطنطينية على أنقاض قريةٍ قديمة كانت تسمى بيزنطة، يقال: إن بعضَ اليونانيين أنشأوها حوالي سنة (657ق. م)، فاتخذها الإمبراطور "قسطنطين" عاصمة لدولته بعد سقوط روما والشطر الغربي من الإمبراطورية في أيدي الوندال، في القرن الرابع الميلادي وسماها باسمه، وأصبحتْ

[1] اسم قديم لشبه جزيرة البيلوبونيز جنوبي اليونان.

منذ ذلك الحين عاصمة للإمبراطورية الشرقية، التي عرفتْ باسم دولة الروم، ولا يجب أن نغفل عن القيمة الاقتصادية والتجارية للمدينة بالموازاة مع القيمة التاريخية العسكرية والاستراتيجية[1].

استعدادات محمد الفاتح لفتح القسطنطينية:

سيطرَ هاجس فتح مدينة القسطنطينية على السلطان محمد الفاتح منذ صغره، فقد كان يقرأ كتب التاريخَ، ويدرس محاولات المسلمين لفتح المدينة، ويسمع حديثَ النبي – صلى الله عليه وسلم – مبشرا بفتحها، وقرر السلطان أنْ يكرس كل جهده لغزو القسطنطينية، فهادنَ أعداءَه وسالَمَ جيرانَه، حتى لا يشغله الصراع معهم عن هدفه الأسمى، وعقد معاهدات الصلح مع ملوك المجر والبوسنة والبندقية وألبانيا[2].

الملحق المرفق رقم 08: محاكاة لوقعة فتح القسطنطينية

[1] *Michael Angold, Turning points in history: the Fall of Constantinople, January 2013, p13.*

[2] علي محمد الصلابي، فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 2006، ص89.

وأنشأ السلطان في مقابل القسطنطينية على الشاطئ الأوربي من البسفور قلعة ضخمة أسماها حصار"؛ أي: قلعة الروم، وشرع في بنائها سنة (856هـ/ 1425م)، وشارك بنفسه في أعمال البناء، وجعلها على شكل مثلثٍ في كل زاويةٍ منه برجٌ ضخم مغطى بالرصاص، سمك جدرانه اثنان وثلاثون قدما، وجعل فيها مقر قيادته، ورابط فيها بنفسه.

احتج الإمبراطور البيزنطي على هذه الإجراءات، ورفض السلطان هذا الاحتجاج، وما كان من الإمبراطور إلا أن أغلق بوابات عاصمته واعتقل الرعايا العثمانيين ورد عليه السلطان بإعلان الحرب. وحشد قوات قوامها ربع مليون جندي، فحاصر بهم القسطنطينية ثلاثة وخمسين يوما، وسط جو غامر بالمشاعر الدينية لدى الفريقين.

منذ شهر أبريل نيسان 1453 طوق السلطان العثماني محمد الفاتح مدينة القسطنطينية بالقوات برا، موازاة مع دعاية دينية وإعلامية واسعة في الأوساط العامية والنخبة، حتى بلغ الحماس الديني أشده، ليصل أعداد الجنود إلى ربع مليون، في هذه الأثناء تزايد الخوف لدى الطرف الصليبي الذي كان مشحونا هو الثاني بالمشاعر الدينية الحماسية، فبدأ الحصار من الجانب العثماني ابتداء من يوم السادس من أبريل 1453م، واستمر مدة 53 يوما، وقد استمات البيزنطيون دفاعا عن المدينة باعتبارها المعقل الأول والأهم لدى المسيحية والمسيحيين[1].

في اليوم التاسع والعشرين من شهر أيار مايو من السنة نفسها؛ بدأ الهجوم العثماني على أسوار المدينة المقاومة، فقد أصدر السلطان أمرا بالهجوم العام على المدينة بحرا وبرا، وانتشر رجال الدين في المعسكرات يصيحون رفقة الجنود بعبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ركز الجنود العثمانيون على جهة البوابة الشرقية للمدينة والتي كانت تسمى بوابة رومانوس، وعلى الرغم من بسالة القوات الصليبية المدافعة عن البوابة؛ إلا أن الجنود العثمانيون الانكشارية قد تمكنوا من تسلق الحصون والأسوار، وأشيع الخبر ان المدينة قد اقتحمت، وبالفعل تلك الإشاعات التي حاول

[1] إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص49.

العثمانيون نشرها؛ قد كانت حقيقية، وأن الإمبراطور قسطنطين قد أصيب بطعنات أردته قتيلا مع عدد كبير من الجثث،

بعدها اتقحم العثمانيون البوابات الواحدة تلو الأخرى، ليتدفق الجنود العثمانيون بأعداد هائلة داخل الأسوار، فأكثروا القتل ووقع الكثير منهم في الأسر واستسلموا للسلطان العثماني الذي دخل المدينة في شيء من التواضع والخيلاء معا!!

ودخل السلطان المدينة في 20 جمادى الأولى عام 857هـ الموافق 29 مايو 1453م، وحول كاتدرائية القديس صوفي إلى مسجد، وأطلق اسم إسلامبول أي مدينة الإسلام ـ على القسطنطينية . وتحقق بذلك حلم المسلمين، وكان فتحها نهاية الدولة الرومانية الشرقية، ودخولها لأول مرة حظيرة الإسلام، وبداية لسلسلة طويلة من الفتوحات والانتصارات العثمانية في البر والبحر، انتهت إلى أسوار فيينا في أوروبا[1].

بفتح مدينة القسطنطينية؛ انتهى الخطر البيزنطي إلى الأبد، وشعر العالم الإسلامي أنه يعيش انتصارا حقيقيا شاملا يجعله يقف في وجه أوروبا بكل ندية، وقد اكتسبت الدولة العثمانية قوة سياسية واقتصادية ضخمة، فأصبحتْ أعظمَ دولةٍ في حوض البحر المتوسط، ودانت لها دول أوروبا بالجزية، وأصبحت إسلامبول أو الأستانة بعد ذلك مقرا للسلطان العثماني الذي تلقبَ بأمير المؤمنين، وظلت حاضرة للدولة العثمانية الإسلامية حتى مطلع القرن العشرين.

لم تتوقف الدولة العثمانية الناشئة عن مضيها قدما نحو الفتوحات في شرقي أوروبا ومنطقة البحر الأسود وغيرها من ممتلكات الدولة البيزنطية المنهارة، فوصلوا إلى بلادَ الصرب والبوسنة والهرسك وشبه جزيرة المورة من بلاد اليونان، وبلاد القرم الواقعة على البحر الأسود، واستولوا على محطات

[1] أحمد الشويخات، مرجع سابق، أنظر مادة: فتح القسطنطينية.

الجنوبيين التجارية في بحر إيجة، كما قاموا بمحاولاتٍ لفتح بلجراد وإيطاليا، وأثينا، وذلك في عهد السلطان محمد الفاتح أيضا.

وتواصلت الفتوحات في أوربا في عهد بايزيد الثاني (886 – 918هـ/ 1481 – 1512م) بن محمد الفاتح، فغزا بولندا والبنادقة، ودحر تحالفا صليبيا في معركة ليبانتو الأولى سنة (905هـ/ 1499م)، وأرسل أساطيلَه إلى البحر المتوسط لنجدة المسلمين المطرودين من الأندلس، وساهم في نقلهم إلى الشاطئ المغربي، وهزمَ أساطيلَ البابا وإسبانيا والبندقية[1].

وعلى غرار الحركة التوسعية والفتوحات العسكرية التي قامت بها الدولة العثمانية على الجانب الأوروبي؛ فقد كان لها أيضا صولات وجولات عديدة في الجانب الشرقي والشرق الأدنى والجزيرة العربية وشمال إفريقيا، والتي سنتطرق إليها في المحاور اللاحقة.

أثر الفتح العثماني للقسطنطينية على البلاد العربية:

لا غرو أن العالم الإسلامي كله قد تناقل أخبار فتح القسطنطينية، وأخبار الفاتح لهذه المدينة، الذي أخبر عنه الإسلام وحديث الشريف قبل قرون من ذلك الزمان، لذا فقد عمَ الفرح والابتهاج في العالم الإسلامي، وفرح الناس كثيرا وتفاءلوا لتحقق نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأقيمت الاحتفالات بها النصر في معظم المدن والحواضر الإسلامية، على غرار القاهرة ومكة وبغداد ودمشق وغرناطة، وكان هذا، في حقيقة الأمر، توطئة للنفوس لتقبل الزَعامة التركيَة العثمانيَة الإسلاميَة الناشئة، فمنذ سنوات لم تحرز أيَة دولة إسلاميَة انتصارا مدويا كهذا.

[1] للمزيد حول هذا الملف؛ يرجى الاطلاع على: نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في العصر الحديث، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1987.

الملحق المرفق رقم 12: رسم تخيلي لجانب من مدينة القاهرة في نهاية العهد المملوكي

شكّل فتح القسطنطينيَة عامل دعم للممتلكات الجديدة في الدولة العثمانيَة، وفرض هيبتها على العالمين الإسلامي والمسيحي، إذ أنَ العمل الاستراتيجي الذي أدَاه كان بمثابة كسر حاجز تاريخي استعصى على المسلمين كثيرا من خلال حصاراتهم المتعددة له منذ العهود الإسلاميَة الأولى، وبذلك تحطَم الجدار الأوروبي الأوَل جغرافيَا أمام زحف المسلمين باتجاه أوروبا.

بالمقابل شكل هذا الفتح الكبير النقطة الأولى لانطلاق فتوحات أخرى في كل من البلدان العربية وحوض البحر الأبيض المتوسط، وهو ما شكل تغيرا جذريا في موازين القوى العالم آنذاك.

المحاضرة الرابعة: فتوحات الدولة العثمانية وحروبها في العراق

لقد ظهر جليا أن الدولة العثمانية منذ أيامها الأولى كانت تنزع نحو الغرب، غير أن تحقيقها لهدف كبير كفتح مدينة القسطنطينية؛ جعلها تكتفي نوعا ما بما حققته في الجانب الأوروبي، وتلتفت إلى الوطن العربي وبالتحديد العراق والشام ومصر ودول المغارب، وبصفة أقل الجزيرة العربية، وذلك للأهمية البالغة التي تجدها الدولة العثمانية في الأقاليم المطلة على البحر الأبيض المتوسط، لهذا فإن بداية القرن 16م –وفي فترة وجيزة– تمكنت من بسط سيطرتها على معظم الأقاليم المذكورة في معارك حاسمة سنتطرف إليها، كلها كنت بقيادة السلطان سليم الأول الذي كان يباشر القتال بنفسه في المعارك.

العراق بين الاحتلالين المغولي والصفوي:

دخل المغول بغداد في 5 صفر 656 هـ، 1258م بعد مقاومة عنيفة، وفتكوا بأهلها سبعة أيام أو تزيد، وتم تخريب المدينة وحرقها وقتل سكانها؛ وبذلك انتهى الحكم العباسي واستطاع أحد أفراد الأسرة العباسية النجاة وهو أبو القاسم أحمد بن الظاهر بأمر الله الذي أعلنه سلطان مصر الظاهر بيبرس سنة 659هـ، 1260م خليفة باسم المستنصر بالله، ولم يكن له من السلطة إلا الاسم[1].

ألغيت الدواوين وبقي ديوان الوزير وديوان الزمام ثم أدمج الديوانان في ديوان واحد صار رئيسه صاحب الديوان، وهو الحاكم الأعلى في العراق، وهو الذي يعين كبار الموظفين وغيرهم، وإلى جانب صاحب الديوان، هناك كاتب السلة، وهو مسؤول عن كتاب الولاية وبيده أسرارها. وهناك قاضي

[1] للمزيد أنظر: ابن أبي الحديد المدائني، حملات الغزو المغلولي للشرق كما عاشها المدائني، تعريب مختار جبلي، دار لارماتون، باريس، 1995.

القضاة. وأهم الوظائف العسكرية الشحنة (القائد العسكري الأعلى) ومهمته المحافظة على الأمن والقضاء على الثورات وكذلك وظيفة نائب الشرطة. أما إدارة الدولة فهي لا مركزية[1].

عانى الشعب من وطأة الضرائب تحت حكم المغول، مما أدى إلى تدهور أحوال البلاد اقتصاديا وازدياد الخراب في بعض المدن. ولم يضف المغول شيئا جديدا إلى ما كان عليه أسلافهم من النظم الإدارية والحضارية والاقتصادية. قامت الحروب بين الفرق المغولية، مما أدى إلى تعرض البلاد للكثير من الغزوات فهاجم الصفويين العراق[2].

الصفويون[3] في العراق:

احتل الشاه إسماعيل الصفوي بغداد عام914 هـ، 1508م واتبع سياسة تفريق صفوف الأمة الواحدة، وباضطهاد السكان وتخريب مزارعهم. غير أن العثمانيين لم يمكنوهم من البقاء. فقد هزم السلطان العثماني سليم الأول الصفويين في موقعة جالديران عام 920هـ، 1514م. وقد أدى

---

[1] عبد الله إسحاق، بغداد بين صفرين، جريدة البيان الالكترونية، الإمارات العربية المتحدة، 12/ 04/ 2003.

[2] للمزيد حول أخبار المغول في العراق وبغداد؛ أنظر: رجب محمود إبراهيم بخيت، تاريخ المغول وسقوط بغداد، مكتبة الإيمان، المنصورة، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، 2010.

[3] الصفوية، الدولة (906-1148هـ، 1500- 1735م). ظهرت الدولة الصفوية في إيران، وكان مؤسسها الشاه إسماعيل، من سلالة الشيخ صفي الدين الأردبيلي (650-735هـ، 1334-1252 م). وكان صفي الدين ومن بعده ابنه صدر الدين سنيين، وكذلك كانت الجماعة الدينية التي أنشأها في الأردبيل سنية. وكان حفيده الخواجا علي الذي تولى رئاسة الجماعة عام 802هـ،1399م شيعيا معتدلا، وجاء بعده ابنه الشيخ إبراهيم، فقاد جماعته في صراع مع أهل السنة في الداغستان. وخلفه في نفس الطريق ابنه الشيخ حيدر الذي تولى الرئاسة سنة 859هـ، 1455م، وخلفه ثلاثة من أولاده أصغرهم إسماعيل (931907 -هـ، 1501-1524م) المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية، نسبة إلى صفي الدين الأردبيلي، أنظر: باسم حمزة عباس، "سياسة إيران العسكرية والمذهبية والداخلية وأثرها على السياسة الخارجية في عهد الشاه إسماعيل الصفوي 1501- 1524"، مجلة الدراسات الإيرانية، عدد 10- 11، ص63 وما يليها.

انتصار العثمانيين على الصفويين إلى مد النفوذ العثماني إلى شمال العراق في الجزيرة والموصل وأربيل وكركوك. وقد زعزع انتصار العثمانيين النفوذ الإيراني الفارسي في المنطقة[1].

الحكم العثماني في العراق 1534 – 1918م:

استولى العثمانيون على بغداد في 24جمادى الثانية 941هـ،31 ديسمبر 1534م في عهد السلطان سليمان القانوني، الذي هزم الصفويين[2]. وبذلك سيطر العثمانيون على أهم الطرق التجارية الرئيسية التي تربط الشرق الأقصى بأوروبا. وترتبت على ذلك مسؤوليات دفاعية ضد البرتغاليين في منطقة الخليج العربي. فأمر السلطان بإعداد الأسطول العثماني لمنازلة البرتغاليين. ووقع السلطان سليمان صلحا مع الشاه طهماسب الصفوي تخلى فيه السلطان سليمان عن تبريز مقابل تعهد الشاه بعدم الاعتداء.

كانت كبرى المشكلات التي واجهت الحكم العثماني للعراق في ولايتي شهر زور والبصرة. فالأولى في منطقة الجبال على الحدود مع الدولة الصفوية، ولهذا تعرض الحكم العثماني فيها إلى الأخطار باستمرار. أما البصرة، فهي تقع في منطقة شديدة المراس، وكانت دائما تنازع سلطات بغداد. وقد أبدى العثمانيون مرونة مع الأسر المحلية المتنفذة التي أعلنت ولاءها، خاصة وأن العثمانيين حرصوا على تثبيت نفوذهم وسلطاتهم في منطقة البصرة من أجل التحكم بشبكة الطرق التجارية وبخاصة طريق الخليج العربي، وذلك من أجل منازلة البرتغاليين والتصدي لهم في منطقة الخليج العربي.

سادت العراق حقبة من الاستقرار دامت قرابة نصف قرن، تخللها عدد من الاضطرابات في منطقة البصرة نتيجة الثورات الفكرية، وقد أدرك السلطان سليمان القانوني أهمية العراق وأن ضياعه يعني تجدد الأطماع الفارسية في الأناضول، فعمل على التمسك به، وجند في سبيل ذلك إمكانات

---

[1] فاتج أقجة، السلطان سليم الأول، مرجع سابق، ص87 وما يليها.

[2] علي شاكر، ولاية الموصل العثمانية في القرن السادس عشر، دار المنهل، عمان، 2011، ص51.

مالية وعسكرية كبيرة تحديا لفارس وإصرارا على الوقوف أمام أطماعها. وأصبحت السياسة العثمانية في عهده تقوم على الحفاظ على العراق وعدم التساهل في التنازل عن أي جزء منه. فنشط ولاة العراق في تأمين النظام داخل المدن وصد اعتداءات الصفويين على الحدود، وشيد بعض الولاة عددا من الجوامع والمدارس، ونشطت التجارة في هذه الحقبة.

الملحق المرفق رقم 09: صورة للجامع أبي حنيفة في مدينة بغداد نهاية القرن 19

جامع ابو حنيفة في عهد الدولة العثمانية عام 1890 تقريبا

ثم أخذ الوضع العام في العراق في التدهور، وبدأت الفوضى وعدم الاستقرار في الانتشار مع مطلع القرن السابع عشر الميلادي، وكثرت الحركات الانفصالية، فاستغلها الصفويون الذين احتلوا بغداد ومناطق أخرى في عام 1623م. واستعاد العثمانيون بغداد مرة أخرى سنة 1638م بعد

محاولات مستمرة. وأدت هذه الحروب إلى الكثير من الخراب والدمار، وكثرة الاضطرابات وحركات التمرد[1].

الملحق المرفق رقم 10: صورة لموقع معركة جالديران

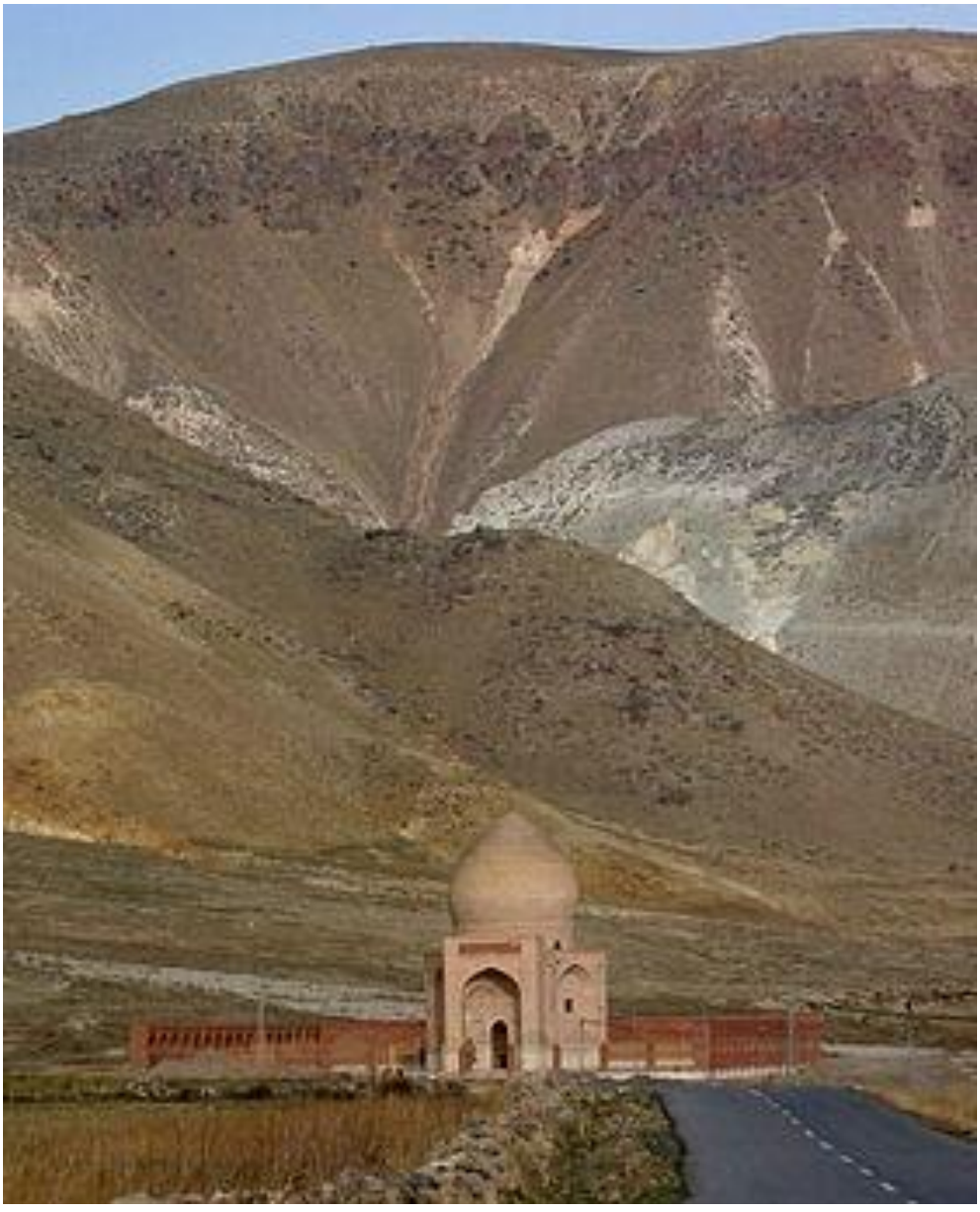

[1] أحمد الشويخات وآخرون، أنظر مادة: تاريخ العراق.

وتكررت محاولات الصفويين للاستيلاء على البصرة وبغداد، وانتهت هذه المحاولات بتوقيع معاهدة أرضروم عام 1847م بين الدولتين تم فيها اعتراف بلاد فارس بتبعية العراق للعثمانيين[1].

وبالرجوع إلى معركة جلديران؛ علينا أن نتكلم شيئا ولو وجيزا عن السلطان سليم الأول، 1467 - 1520م، وهو السلطان سليم بن بايزيد الثاني، يعتبر تاسع سلاطين الدولة العثمانية، ولد بإسلامبول (إسطنبول)، شغل منصب الوالي على سنجق طرابزون[2] في أواخر عهد أبيه، تنازل له والده عن السلطة مكرها سنة 918هـ. 1512م، انشق عليه إخوته، ودارت بينهم حروب، انتصر فيها عليهم[3]، اهتم بتجديد معاهدات الصلح والهدنة مع الدول الأوروبية، ووجه طاقاته العسكرية إلى بلدان شرقية إسلامية، وطغت شهرته عندما أوقف محاولات الصفويين لضم العراق، وانتصر عليهم في معركة جالديران التي نحن بصددها الآن، ودخلت جيوشه على إثرها عاصمتهم تبريز، وقضى على دولة المماليك في الشام ومصر، وضم إليه الحجاز.

بدأ في عهده مد النفوذ العثماني على شمالي إفريقيا، وخاصة في الجزائر، وارتبط هذا بأسرة بربروسة الشهيرة، وحاول أن يجعل من إسلامبول مركزا علميا للبحوث المختلفة، وبنى كثيرا من الجوامع، ومن آثار القاهرة التي وجه معظم عنايته إليها مقياس النيل في جزيرة الروضة، مات بمرض معوي ودفن بإسلامبول.

وأساس الخلاف بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية الشيعية؛ أن الشاه إسماعيل الصفوي ساعد أحمد وهو واحد من عديد الإخوة لسليم الأول، وزيادة على ذلك أرسل الشاه إسماعيل إلى حاكم مصر يطلب منه التحالف من أجل وقف زحف الدولة العثمانية التي أصبحت تشكل خطرا حقيقيا على كامل البلاد العربية والفارسية، ومقال هذا أراد سليم الأول أن يفتعل سببا للدخول في

---

[1] علي شاكر، مرجع سابق، ص71.

[2] مدينة تركية تقع في شمال شرق تركيا على ساحل البحر الأسود.

[3] للمزيد حول هذه القضية أنظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص188.

محاربة الصفويين في إيران، فأمر بجمع عدد من الشيعة في الأقاليم المحاذية لحدوده مع إيران، وقيل أن عددهم وصل إلى وصل إلى الأربعين ألفا، ثم أمر بقتلهم جميعا[1].

سار السلطان سليم الأول إلى إسماعيل الصفوي منطلقا من أدرنة في 22 محرم 920هـ/ 19 آذار مارس 1514م، وتقدم الجيش بنفسه، متجها صوب العاصمة تبريز[2]، وفي الوقت نفسه كانت الجيش الصفوية تتعمد التقهقر من أجل الإيقاع به ومحاصرته وقطع طريق الإمداد، وأيضا من أجل أن ينال التعب من القوات العثمانية المتوغلة إلى الجنوب والشرق، وفي وادي جال دران التقى الجيشان يوم 24 أغسطس آب 1514م ولكن الوات العثمانية رغم أنها كانت متعبة جراء السفر الطويل؛ إلا أنها تمكنت من دحر الجيوش الصفوية، وذلك لاعتماد العثمانيين على الطوبجية وسلاح المدفعية المتطور حينها، فر الشاه إسماعيل هاربا ووقع الكثير من جنوده وقادة الجيش تحت الأسر، ومنها زوجته التي قعت أسيرة، فلم يردها السلطان سليم إلى زوجها بل زوجها لأحد كاتبيه، وفي يوم 4 سبتمبر 1514م دخل السلطان سليم الأول المدينة وأعلن تبعيتها إلى الدولة العثمانية، وأدى هذا الانتصار الكبير إلى وقف التوسع الصفوي لمدة قرن من الزمان وجعلت العثمانيين سادة الموقف، وأنهت ثورات العلويين داخل الإمبراطورية، هذه الثورات الت كانت بدعم خفي ومعلن من الصفويين.

---

[1] المرجع نفسه، ص189.

[2] تَبْريز مدينة إيرانية، كانت عاصمة لإيران في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وهي رابعة كبريات مدن البلاد، وعاصمة منطقة أذربيجان الشرقية، في الركن الشمالي الغربي لإيران. وتقع على بعد 55كم من بحيرة يورميا، وهي محاطة بالجبال تقريبا، يبلغ عدد سكان مدينة تبريز 1,191,043 نسمة. كادت الزلازل أن تدمر تبريز مرات عديدة؛ ففي عام 1990م ضربت هزة عنيفة المدينة تسببت في مقتل الآلاف وتلف كثير من المملتكات، تشتهر تبريز بسجادها الفارسي البديع، كما أن بها سوقا كبيرا للفواكه المجففة والمصنوعات الجلدية. وتنتج أيضا عيدان الثقاب والدقيق والمنسوجات، لا يعرف المؤرخون بالتحديد تاريخ إنشاء المدينة. بيد أنه من الجائز أن يكون قبل القرن الرابع الميلادي. وقد احتلتها القوات الروسية عام 1827م ومرة أخرى خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، أخرجت تبريز جماعة من الفقهاء وعلماء العربية الكبار كالخطيب التبريزي، وأبي الفتح التبريزي الفقيه الحنفي، وأبي المظفر التبريزي الفقيه الشافعي وغيرهم، كالمظفر التبريزي، وموسى بن محمد التبريزي.

وترتب على المعركة بالإضافة إلى الاستيلاء على تبريز عاصمة الدولة الصفوية؛ سيطرة السلطان العثماني على مناطق من عراق العجم وأذربيجان ومناطق الأكراد وشمال عراق العرب،، كبلاد الموصل وديار بكر وغيرها، ثم توجهه صوب الشام حيث أكمل انتصاراته على المماليك حلفاء الصفويين بمعركة مرج دابق.

المحاضرة الخامسة: معركة مرج دابق (922هـ – 1516م) والسيطرة العثمانية على الشام

وقعت موقعة مرج دابق بين الجيش العثماني بقيادة سليم الأول وجيش المماليك بقيادة السلطان قنصوه الغوري، الذي كان يتخوف كثيرا من القوة المتنامية للعثمانيين، ولا سيما انتصاراتهم العسكرية أمام الصفويين، ومنه وصول التهديد العثماني إلى الشام أيضا بعد العراق، ففي سنة 920هـ/ 1514م كانت المراسلات بين الشاه الصفوي إسماعيل وملك مصر قانصوه الغوري المراسلات على أشدها، كثيرا ما ينقل فيها شاه الصفويين تخوفاته من قوة العثمانيين، وجبروت السلطان سليم، وهذه الأحداث كانت أولى الأسباب النزاع بين العثمانيين ودولة المماليك [1].

كانت دولة المماليك تحكم الشام ومصر ولها سيادة على الحجاز، هو الخلاف على ترسيم الحدود بين الدولتين في طرطوس في الشام، فأراد سليم الأول حسم المسألة بالسيطرة التامة على هذه المنطقة. ثم إن السلطان المملوكي قنصوه الغوري آوى إليه بعض الأمراء العثمانيين الهاربين من السلطان سليم، وأراد أن يتخذ منهم أداة لإثارة القلاقل في وجه سليم، ووقف موقفا غير ودي من العثمانيين أثناء غزوهم الدولة الصفوية، من ذلك منعه هدايا كانت مرسلة من الهند إلى الآستانة، ومنع الأمير علاء الدولة حاكم إمارة دلفادر من تقديم المؤن والأغذية اللازمة للجيش العثماني الزاحف على تبريز. فما كان من سليم إلا أن جعل هدفه الأول بعد تبريز القضاء على الخطر المملوكي، فبدأ بقتل الأمير علاء والاستيلاء على إمارته، وأنزل هزيمة ساحقة بالجيش المملوكي في معركة فاصلة بمرج دابق شمالي حلب، مات فيها السلطان الغوري من صدمة الهزيمة. واستولى سليم على أملاكه بالشام[2].

عزم السلطان العثماني على الانتقام من ملك مصر قانصوه الغوري، وقد ظهر جليا تعامله مع الشاه الصفوي، وفي أوائل جمادي الأولى شاعر أن السلطان العثماني عازم على السفر لمحاربة الفرس،

---

[1] إبراهيم حليم بك، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988، ص80.

[2] أحمد الشويخات وآخرون، مرجع سابق، أنظر مادة: موقعة مرج دابق.

وأقام ابنه سليمان مقامه في أدرنة، وبيري باشا في الأستانة، وأحمد باشا بن هرسك في بورسة، وفي الوقت نفسه أرسل رسلا وسفراء إلى ملك مصر ليعقد هدنة[1]، كل هذه المناورة تعتبر خدعة للإطاحة لملك مصر.

وقد كان السلطان المملوكي قانصوه الغوري مستعدا لهجوم محتمل ووشيك على بلاده، غير انه أرسل الرسل من أجل إبراهم الهدنة أو المعاهدة أو أي شيء يمكنه أن يثبط عزيمة العثمانيين المصممين على القتال والانتقام، غير أن السلطان العثماني ضرب بكل تلك المحاولات عرض الحائط، بل طرد الرول المملوكي وأهانه، وسار بجيشه قاصدا النيل، فوافته الاستعدادات المملوكية في بلاد الشام، والتي يقودها السلكان قانصوه نفسه وهو في سن الثمانين 80، غير أن الحشود المرابطة في انتظار الجيش العثماني كانت على غير وفاق وانسجام فيما بينها[2]، ذلك أن قوة عسكرية جرارة مسلحة بأحدث الأسلحة والمدافع النارية؛ قهرت القسطنطينية وتغلبت على الدولة الصفوية، كانت أجدر بالفوز على المماليك في بلاد الشم والوصول إلى مصر.

التقى الطرفان العثماني بقيادة سليم الأول مع الطرف المملوكي المصري في بلاد الشام في مكان يسمى مرج دابق بالقرب من حلب الشهباء، فانهزم الغوري بسبب وقوع خلاف بين القيادات في الجيش، مما ساعد العثمانيين على تحقيق الانتصار بسهولة ويسر، وعثر على قانصوه الغوري مقتولا، وكان ذلك يوم الأحد 25 رجب سنة 922هـ، مما يوافق 24 أغسطس من سنة 1516م[3].

وبعد أن انهزمت القوات المملوكية في بلاد الشام توسع السلطان سليم الأول في كامل البلاد فاحتل حمص وحماة ودمشق وعين بها الولاة، واستقبل العلماء وأحسن وفادتهم، وفرق الأموال على

---

(1) إبراهيم حليم بك، مرجع سابق، ص83.

(2) محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ص 190، 192.

(3) المرجع نفسه، ص192.

المساجد والناس، وأمر بترميم المسجد النبوي في دمشق، وخلع على نفسه لقب خادم الحرمين الشريفين، وهو اللقب الذي مازال متداولا حتى الآن في المملكة العربية السعودية.

أما في الجانب المصري؛ فقد تسامع الناس بمقتل السلطان قانصوه الغوري، فسارع المماليك في مصر إلى انتخاب طومان باي ليخلفه، هذا الأخير الذي أصبح اليوم مطالبا بالحد من انتصارات العثمانيين وتوسعهم نحو مصر، ومطالبا أيضا بالانتقام لهزيمة مرج دابق، وعلى الرغم من أن السلطان سليم الأول قد أرسل له الرسل يقترح عليه الصلح والإبقاء عليه مقابل الدعوة له على المنابر والاعتراف بالتبعية للباب العالي العثماني؛ إلا أن طومان باي قد رفض هذا الطرح واعتبره جبنا، واستعد لقتال العثمانيين والخروج إليهم في الحدود المصرية الشامية، ولكن كل هذا انتهى بهزيمة المقدمات المملوكية المصرية، ووقعت مدينة غزة تحت حكم العثمانيين، ولم يبق للعثمانيين سوى التوجه نحو القاهرة[1].

بلاد الشام تحت الحكم العثماني:

قسمت بلاد الشام إلى ثلاث ولايات يتولى كلاً منها والٍ عثماني: ولاية الشام (دمشق)، وولاية طرابلس، وولاية حلب. وغدت أربعًا في القرن السابع عشر الميلادي بتحويل صيدا إلى ولاية. وكان العثمانيون يعينون على كل ولاية موظفًا كبيرًا يُسمى الوالي أو الباشا، ويعتبر نائبًا عن السلطان وصلاحيته مطلقة وأحكامه نهائية. وقد عمدت الدولة إلى كثرة تبديل الولاة خشية أن يقوى نفوذهم فيصبحوا خطرًا عليها. يساعد الوالي ديوان مؤلف من كبار الضباط والعلماء والأعيان وكبار الموظفين. ومهمة الديوان استشارية فقط.

الحركات الاستقلالية في سوريا .منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، بدأ الضعف يتسرب إلى كيان الدولة العثمانية، وأخذت قبضتها تتراخى عن ولاياتها البعيدة، ولا سيما التي تركت فيها الحكم للعصبيات المحلية وللأسر الإقطاعية.

---

[1] محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص193.

وقد استغل حكام هذه المناطق وضع الدولة، فقامت بينهم الحروب فأخذ ينازع بعضهم بعضًا على ما في أيديهم من مناطق، أو يعلنون الثورة على الدولة بقصد الاستقلال عنها في شكل تمردات وأحداث عصيان مختلفة.

كان من أهم الحركات الاستقلالية التي قامت في بلاد الشام حركة الأمير فخر الدين المعني الثاني في لبنان[1]، وحركة الشيخ ظاهر العمر الزيداني في فلسطين [2].

[1] أنظر: سماح معروف وحسام نايف، "فخر الدين المعني الثاني ودوره في تاريخ لبنان الحديث 1590- 1635"، مجلة جامعة البعث، حمص، العدد07، مجلد 40، 2018، ص145 وما يليها.

[2] محمد نجيب تركي الدرابسة، "الحياة الثقافية والاجتماعية في بلاد الشام أبان حكم ظاهر العمر الزيداني 1659- 1775"، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، جامعة الزقازيق، العدد07، 2017، ص2573.

المحاضرة السادسة: استيلاء العثمانيين على مصر (معركة الريدانية)

في بادئ الامر أراد سليم الأول عقد صلح مع طومان باي، فأرسل إليه كتبا يطلب منه الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر، مقابل أن يخدم طومان باي البلاط العثماني وأن يحكم باسم العثمانيين في بلاد الشام حتى غزة، وأن يذكر اسمه على المنابر ويدعو له وأن يضرب السكة باسمه، ولكن طومان باي رفض هذه التبعية وضرب بهذا العرض عرض الحائط[1].

هذا الموقف الأخير يفيد بأن الحرب بين القوتين حقيقة حتمية ولا مفر منها، لهذا حشد طومان باي الكثير من قواته من اجل الاستعراض وتحظير الرعية من المصريين واستعدادا للحرب، وهو ما حديث فعلا في عام 1517، فقد زحف سليم على مصر، والتحم جيشه بالجيش المملوكي بقيادة طومان باي بالريدانية في ضواحي القاهرة في 23 يناير 1517م.

فأنزلت القوات المدفعية العثمانية بالمماليك هزيمة نكراء بالمماليك، الذين دافعوا عن المدينة إلى آخر الرمق، ودخلوا في قتال الشوارع والمدن، وهو ما جعل العثمانيين يتكبدون خسائر كبيرة، مما أخاف العثمانيين الذين قدموا له عرضا يفيد أنهم سيسمحون له بحكم الصعيد المصري تحت إشرافهم، ولكنه رفض كل تلك العروض[2]، وواصل القتال ثم هرب إلى الدلتا حيث ألقي عليه القبض هناك وتم إعدامه شنقا على باب زويلة في 23 أبريل 1517م.

بعد أن دخل العثمانيون إلى القاهرة تواصلت المقاومة في شكل حروب استنزاف وحروب الشوارع، وحتى الحروب من المنازل، حتى قيل أن عدد الضحايا من أهل البلد وصل إلى 50000 نسمة، وقيل أن طومان باي قد فر بعد الهزيمة إلى بر الجيزة وانطلق في بناء مقاومته للعثمانيين هناك، وأبدى قسوته على كل من يقع أسيرا في يده، غير انه وقع هو بدوره في يد العثمانيين بعد خيانة

---

[1] إسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، ط1، مكتبة العبيكة، الرياض، 1997، ص39.

[2] المرجع نفسه، ص40.

بعض أتباعه، فتم شنقه بأمر من السلطان سليم الأول في 13 أبريل1517م، ومنه فإن تلك المقاومة لم تدم إلا شهرين فقط، ودفن بباب زويلة بالقبر الذي كان السلطان الغوري قد أعده لنفسه.

بعد أن تمكن السلطان سليم الأول من فرض الأمن والاستقرار في القاهرة وواصل فتوحاته خارجها؛ حقق السلطان هدفا استراتيجيا مهما وهو الاستيلاء على التراث النبوي في خطوة هي الأخيرة قبل إعلان السلطان العثماني كأمير للمسلمين في كل البلاد الإسلامية، ومن تلك الأغراض النبوية السيف والبيرق والبردة مفاتيح الكعبة المشرفة[1].

الملحق المرفق رقم 11: لوحة للسلطان سليم الأول

[1] محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص194.

وفي أوائل شهر سبتمبر من سنة 1517م سافر السلطان العثماني من القاهرة متوجها نحو القسطنطينية مقر الخلافة، مصطحبا معه آخر الخلفاء الصوريين من بني العباس، وعير خير بك واليا على مصر وما والاها من الأوطان، وهو أحد المماليك الذين ارتدوا على طومان باي، بعد أن أقام الكثير من التعديلات الإدارية في مصر.

ومنذ هذا التاريخ أصبح من حق الدولة العثمانية استقبال الأموال التي تدفع في شكل رسوم مقابل السماح للزوار المسيحيين من إسبانيا وبعض البلدان الأوروبية، كما أن البنادقة أيضا أصبحوا يدفعون إتاوات مقابل السماح لهم بحيازة جزيرة قبرص.

توفي الخليفة العثماني وهو يجهز نفسه لبناء أسطول بحري قوي من جهة وتقوية الجيش البري من جهة أخرى، وإظهار النية في فتح جزيرة رودس[1]، ولكنه توفي قبل إكماله هذه المشاريع في رحلته من القسطنطينية إلى أدرنة في اليوم التاسع من شوال 926هـ، الموافق للثاني عشر من شهر سبتمبر 1520م، وكان يبلغ من العمر 51 سنة، وبعد موت سليم الأول أخفى طبيبه الخاص خبر موته عن الحاشية، إلا بعض الوزراء، فاجتمع بكل من بير محمد باشا وأحمد باشا ومصطفى باشا،

[1] رودس إحدى الجزر الاثنتي عشرة الواقعة في بحر إيجة. تقع على مسافة 19كم إلى الجنوب الغربي من آسيا الصغرى. تبلغ مساحتها 1,398كم^2، وعدد سكانها نحو 91 ألف نسمة. تمتد سلسلة من الجبال على طول امتداد الجزيرة، يبلغ أعلى ارتفاع لها 1,215م فوق مستوى سطح البحر. تنتشر فيها المزارع والبساتين والسهول الخضراء في الأودية الخصبة، التي يزرع فيها البرتقال والزيتون والتبغ والعنب. من صادراتها الإسفنج. وهي جزيرة سياحية، وكانت في السابق من أغنى الولايات اليونانية المستقلة. عاش فيها العديد من الشعراء والفنانين والفلاسفة. يوجد فيها تمثال هليوس المسمى بـ تمثال رودس، والذي كان يعد من العجائب السبع في العالم القديم، وفي عام 1310م احتل الجزيرة فرسان رعاية المرضى . وهي منظمة نصرانية يقوم أفرادها برعاية المرضى . وسيطروا عليها حتى عام 1522م. ثم احتلها الأتراك، احتلتها إيطاليا أثناء الحرب التركية الإيطالية ما بين عام 1911. 1912م .وخَسرتها تركيا مع ثلاث عشرة جزيرة أخرى في بحر إيجة، وأصبحت تَتبع إيطاليا، تنازلت إيطاليا عنها وعن الجزر الاثنتي عشرة الأخرى في بحر إيجة إلى اليونان، بعد الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945م)، أنظر: أحمد الشويخات، مرجع سابق، مادة رودس.

واتفقوا على كتمان الامر حتى يحضر ولده سليمان الذي كان واليا على صاروخان، وكل هذا خوفا من تمرد الانكشارية[1].

ولما وصل الخبر بموت السلطان سليم واعتلاء ابنه سليمان الأول العرش؛ ثار حاكم الشام وهو من أصحاب قانصوه الغوري الذين خانوه في مرج دابق، فسار بقواته ليستولي على قلعة دمشق وأرسل الجيوش لاحتلال بيروت، كما أرسل إلى حاكم مصر —وهو بدوره خائن لطومان باي– أرسل إليه يحثه على العصيان وإعلان التمرد على الدولة العثمانية، إلا أن هذا الأخير رفض أن يشترك معه إلا إذا استولى على حلب، ولكن هذه الثورة لم تكن ذات أثر كبير، فسرعان ما أرسل إليها سليمان الأول من يقمعها.

ساءت العلاقات بين أشراف مكة المكرمة وبين المماليك في مصر بسبب التنافس الاقتصادي والتجاري، وقد أدى هذا الخلاف إلى تأثر مصالح المماليك في الحجاز، ما رد علي ذلك باعتقال الغوري لعدد من القضاة ورجال العلم الحجازيين في القاهرة، ولما دخل سليم الأول القاهرة أطلق سراحهم، ثم وجه إليه طلبه بالدخول تحت طاعته والحكم باسم الدولة العثمانية، وقد استعمل هؤلاء الوجهاء والقضاة في تمرير هذا المشروع بأن كتبوا للشريف بركات بن محمد بأن يقبل هذه الدعوة[2].

بعد أن تبين للشريف أن مجابهة الدولة العثمانية المتنامية أمر مستحيل من الناحية العسكرية؛ وافق الشريف على عرض العثمانيين، على أمل أن يقبل العثمانيون بإمارة الأشراف على مكة والحجاز تحت سيادة الدولة العثمانية، فأرسل بركات بن محمد ابنه إلى القاهرة يحكم الهدايا والتبريكات لسليم الأول لما فتح الله على يديه من البلدان العربية، واستلم الرسول تفويضا من السلطان بحكم بركات الحجاز، وقد استقبل الحجازيون وأهل مكة هذا التفويض باحتفال كبير[3].

---

[1] محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص197.

[2] أحمد إسماعيل ياغي، مرجع سابق، ص43.

[3] المرجع نفسه، ص43.

لعل ظروف تاريخية أخرى قد أفضت إلى هذه التطورات بالنسبة للجزيرة العربية واليمن، فقد تعرضت سواحل الجزيرة العربية والموانئ المهمة فيها إلى غزو برتغالي استعماري، منذ أن وصلت الكشوف البرتغالية إلى رأس الرجاء الصالح في جنوبي إفريقيا، وقد تعدت ذلك إلى الهند، فظهرت المراكب البرتغالية في منطقة البحر الأحمر عام 1505م، ووصلت خليج عدن وجزيرة سوقطرى، وقد حاول المماليك الوقوف في وجه البرتغاليين، وبنوا أسطولاً لذلك، ولكنهم هزموا في وقعة ديو في المياه الهندية عام 1509م، وهزم البرتغاليون الأسطول المملوكي في البحر الأحمر، ولجأ السلطان المملوكي إلى طلب العون من العثمانيين. وهكذا تركز الحكم البرتغالي في مناطق من البحر الأحمر، والخليج العربي، وأصبحت لهم قاعدة عسكرية وتجارية في هرمز، وهددوا بذلك التجارة العربية في المحيط الهندي، واستطاعوا بشكل تدريجي أن يحتكروا التجارة فيه، وظلوا فيه حتى عام 1032هـ، 1622م.

أصبح على الدولة العثمانية الإسلامية مهمة حماية ديار الإسلام من الغزو وبذلك هذه الديار واحتل أجزاء منها. وقد تصدى العثمانيون للبرتغاليين بعد أن تمكنوا من دخول البلاد العربية، وأنهوا بذلك الخلافة المملوكية بعد دخولهم بلاد الشام على أثر وقعة مرج دابق عام 922هـ، 1516م، وبلاد مصر على أثر موقعة الريدانية عام 923هـ، 1517م، وأرسل الشريف بركات شريف مكة مفاتيح الكعبة والهدايا مع ابنه إلى السلطان سليم الأول في مصر دلالة على تبعية الحجاز للسيادة العثمانية بشكل سلميّ.

المحاضرة السابعة: النظام البيروقراطي العثماني في الولايات العربية

بالنسبة للجانب الإداري فيمكننا أن نستشهد بعبارة كتبها الدكتور حسن الضيقة في دراسة له عن الدولة العثمانية من الناحية الثقافية والاجتماعية، فيقول: «اتخذت السلطة العثمانية منذ نشأتها صيغة مؤسسات حكم، ينظمها منطق موحد وجامع لمكوناتها المتشعبة والمختلفة، فالإلمام بخصائص هذه المؤسسات وما سطرته لنفسها من مبادئ وقوانين تنظيمية ونظم تشريعية خاصة بمباني السلطة، أو ما طورته من سياسات استراتيجية في تعاملها مع ما واجهته من قضايا كبرى؛ يؤكد استحالة الركون إلى أية منهجية في التحليل تحاول أن تعين طبيعة هذه السلطة عن طريق دراسة المؤسسات والقوى التي تشكلت مبانيها المختلفة» [1].

وانطلاقا من المقولة هذه؛ وفي هذا المجال يمكننا أن نلخص بعض المصطلحات التي تشرح النظام الإداري والمؤسساتي للدولة العثمانية في الأناضول وكذا البلاد العربية:

أما الوظيفة: فما يقدر من عَمَل أو طعام أو رزْق أو غير ذلك، وهي بهذا الشكل أشبه بالمهمة، غير أنها تختلف عنها في كونها غير مقيدة بزمن معلوم، بينما المهمة تبقى دائما مرتبطة بآجال الانتهاء، وقد تعرف الوظيفة على أنها عَهْد أو شَرْط، فوظيفة العابد: أوراده وأذكاره، أما ما يصطلح عليه في لغة الحكم والإدارة والدواوين بالوظيفة؛ فهي منصب، عمل مسند إلى عامل ليؤديه مع اختصاصات يحددها له القانون، فنقول: "أدى وظيفته على النحو الأكمل"[2].

بينما اللقب؛ اسْم وضع بعد الاسْم الأول للتعريف أَو التشريف أَو التحقير، والأخير مَنْهي عَنه وَفِي التنْزِيل الْعَزِيز {وَلَا تلمزوا أَنفسكم وَلَا تنابزوا بالْأَلْقَاب} وَقد يَجْعَل لقب السوء علما من غير نبز مثل الْأَخْفَش والجاحظ وَنَحْو ذَلك، والجمع ألقاب[3]، أما ما يهمنا نحن في هذا الصدد من

---

[1] حسن الضيقة، الدولة العثماني –الثقافة. المجتمع والسلطة–، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1997، ص11.

[2] أنظر معجم اللغة العربية المعاصر، النسخة الإلكترونية، مادة الوظيفة.

[3] المعجم الوسيط، النسخة الإلكترونية، أنظر مادة لقب.

اللقب؛ أن الكثير من القادة والعسكريين والسياسيين والوجهاء والأكابر في الدولة العثمانية –على غرار غيرها من الدول–؛ قد شاع فيها التلقيب حسب المنصب أو المهنة أو الصفة الغالبة أو النسبة إلى قبيلة أو طائفة، فنجد أحيانا أن اللقب طغى على الاسم، وقد يتعذر علينا التعرف على الاسم إلا بالرجوع إلى اللقب، مثل، قولنا محمد علي باشا، وسليمان القانوني وسليم الأول، محمد الفاتح، خير الدين بربروس، حسين داي، أحمد باي إلى غير ذلك...

وتجدر الإشارة إلى أن السلطان العثماني كان ذا صلاحية واسعة وسلطة حرة في منح الألقاب الرفيعة والفخرية ونزعها حين يشاء[1]، وكذا توزيع المناصب الدرجات الإدارية والرتب العسكرية كان في سد السلطان وحكام الولايات، وتجدر الإشارة أيضا إلى ظاهرة شراء الوظائف والرتب السامية حتى اختلط النفوذ المالي بالنفوذ السياسي والعسكري وحتى النفوذ في مؤسسة القضاء، وتعتبر هذه الصفة من أهم ما اتصف به الحكم العثماني ولا سيما في الأقاليم البعيدة عن القسطنطينية كالبلاد العربية مثلا[2].

أما الدولة العثمانية فقد أطلق عليها الكثير من الأسماء الفخرية كالدولة العثمانية والإمبراطورية العثمانية، والخلافة العثمانية، والسلطنة العثمانية، ودولة آل عثمان، والدولة العلية العثمانية، ويبدو أن هذا الاسم هو الاسم الرسمي المتكرر في الأرشيف والوثائق والمراسلات السلطانية العثمانية، وباللغة التركية :دَوْلَت عَليهٔ عثمَانيه.

وعلى غرار تعدد الأسماء والأوصاف للدولة العثمانية؛ نجد أيضا التعدد أكثر في أسماء وألقاب وأوصاف سلاطينها، كسلطان العالم، وفلك الزمان الدوار، ومدبر الجمهور، وحاكم ربع المعمورة، وسلطان سلاطين العالم، وخاقان الخواقين، والملك المبارك الميمون ذو الحظ السعيد المؤيد المظفر،

---

[1] مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، ص12.

[2] المرجع نفسه، ص ص 12، 13.

والسلطان ال'ظم والخاقان الأفخم، وسلطان الغزاة والمجاهدين، وحامي باد الإسلام وأهل الإيمان، وخادم الحرمين الشريفين وغيرها من الألقاب والأسماء، بالعموم[1]، وهناك ألقاب وأسماء جاءت بالخصوص لأصحابها، كالقانوني الذي التصق باسم السلطان سليمان الأول، والفاتح الذي التصق بالسلطان محمد الثاني والصاعقة وغير ذلك من الأسماء والألقاب التي لا تفيد من الناحية التاريخية بالكثير وإنما تفيد تمييز بعض السلاطين عن بعض ليس إلا.

الخان:

ويعتبر هذا اللقب أقل من السلطان أو الخاقان، على اعتبار الأخير في مصاف الملوك أو أكثر بينما الخان هو بمثابة الأمير، مع أن استعمال اللقب خان في الكثير من الأحيان نجده ملاصقا لبعض السلاطين مثل مراد خان عبد الحميد خان وغير ذلك.

الصدر الأعظم:

كان يسمى باللغه العثمانيه "صدر أعظم" أو "وزير أعظم"، ويعتبر الرجل الثاني في الدولة العثمانية بعد السلطان مباشره، وهو الحاكم الفعلي للسلطنة، وبمثابة الحاجب والوزير لدى الخلاء العباسيين، تعقد جلسات مجلس الوزراء بأمره، ويقابله في زمننا الراهن منصب المستشار الألماني، والوزير الأول في الحكومة البريطانية على سبيل المثال، كانت تعيين الصدر الأعظم يتم باختيار السلطان العثماني وحده دون انتخابات، ويكون معيار الانتقاء الثقة والولاء أولا ثم الكفاءة ثانيا.

تذكر بعض الكتابات التاريخية المعاصرة[2] أنه في سنة 1320 وعقب تأسيس السلطنة العثمانية ببضع سنوات، عين السلطان عثمان شخصا يسمى علاء الدين بن كمال الدين بك، كصدر أعظم إلا أن الحقيقة التي يوردها محمد فريد بك المحامي في كتاب **تاريخ الدولة العثمانية العلية**، ترفع

---

[1] المرجع نفسه، ص18.

[2] شاعت هذه الدعاية كثيرا في المواقع الإلكترونية وفي ويكيبيديا وبعض المواقع المخصصة للمقالات التاريخية.

اللبس حول هذه الشخصية، وذلك أنه يذكر علاء الدين بن عثمان الذي عينه أخوه أورخان الأول في منصب الصدر الأعظم، وفي ذلك يقول: «... ومن حسن حظ هذه الدولة أن علاء الدين ل يعارض في هذه الوصية التي حرمته من ملك عظيم بل قبلها مقدما الصالح العام على الصالح الخاص، واكتفى بوزارة المملكة وهي الوظيفة المسماة الآن بالصدارة العظمى التي قلده إياها أخوه أورخان...»[1].

أما حكام الأقاليم والولايات؛ فقد تعددت أسماؤهم حسب البلدان والأقاليم، ونذكر منها الأسماء والألقاب التي كانت مستعملة في مصر، كالحافظ والمحافظ والوالي والحاكم، وحاكم مصر المحروسة والأمير، وفي تونس والجزائر مثلا الباي والبيلرباي والباشا والداي غير ذلك، ويمكننا أن نلاحظ أن نظام الحكم العثماني في الولايات يكاد يكون مستقلا تماما، فكل ولاية يتشكل حكمها وديوان وزرائها وفادتها وفقا لخصوصيات تلك الولاية أو الإيالة.

اتسم النظام الاداري العثماني في البلاد العربية طيلة الاربعة قرون بالمركزية حيث اقسم العثمانيون البلاد العربية التي خضعت لهم الى ولايات صغيرة، كل إيالة أو ولاية بدورها تنقسم إلى أقاليم ومقاطعات أوطان وباليليكات ونواحي، ونشروا المفرزات والثكنات وأبراج المراقبة والحاميات حسب أهمية تلك المناطق، كما استعانوا بالسياسة القبلية والخصوصيات الإثنية لكل منطقة من أجل إحكام السيطرة على تلك الأقاليم الواسعة، لهذا فمن الطبيعي أن يحافظوا على النظام الإقطاعي الذي كان راسخا في تقاليد الحياة العامة في البلاد العربية، كما حافظوا على النظم الادارية التي كان معمولا بها في انحاء الوطن العربي قبل سيطرتهم عليه فضلا عن النظم الادارية التي كانت تعمل بها

[1] محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص122.

الدولة العثمانية، وبصورة عامة فقد حافظ العثمانيون على الشكل الاداري القديم حيث لم تكن للدولة العثمانية الرغبة في احداث اي تغير جوهري على البلاد التي سيطروا عليها[1].

غير أن الشيء الإيجابي في السياسة الإدارية العثمانية؛ الحفاظ على استقلالية الإيالات حيث كانت كل إيالة منفصلة عن الاخرى اداريا وقضائيا وماليا، ويلي الايالة في التقسيم الاداري السنجق، وبذلك كانت الايالة تتكون من عدد من السناجق، أما السناجق فقد كان يتكون من عدد من الاقضية تتراوح بين خمسة الى عشر أقضية، وكان القضاء يشمل عددا من النواحي التي هي اصغر اداريا من القضاء، والنواحي عادة تشمل عددا من القرى، وكانت هذه التقسيمات تتغير باستمرار تبعا لقوة ونفوذ الوالي المعين في الايالة، فعلى سبيل المثال قسم العثمانيون ولاية حلب الى ثلاث ولايات هي ولاية دمشق وولاية حلب وولاية طرابلس، وظل هذا التقسيم قائما حتى عام 1660م عندما اضيفت اليه ولاية صيدا بعد ثورة الامير فخر الدين المعني الثاني واستمر هذا الوضع حتى عام 1840م، ولكنها عادت مرة اخرى الى نظام الولايات الثلاث، واصبحت ولاية طرابلس سنجقا تابعا لولاية صيدا، وبعد صدور قانون الولايات عام 1864م، والقانون الذي اعقبه عام 1871م قسمت بلاد الشام الى ولايتين هما ولاية سوريا التي اتسعت لتضم اجزاء من ولايتي طرابلس وصيدا، وولاية حلب، وقد اتسعت لتضم اجزاء من الجزيرة والاناضول[2].

واجهت الدولة العثمانية الكثير من الصعوبات من أجل التوسع وصد الهجمات الصليبية القادمة من أوروبا، وتحملوا في سبيل ذلك؛ الهزيمة أمام النمسا وروسيا، فاتجهوا مطلع القرن السادس عشر إلى بلاد العرب التي ظلت تحت سيطرتهم أربعة قرون، كانت البلاد العربية وقتها تعيش التراجع والقهقرى، فترك العثمانيون الناس على ما هم عليه واكتفوا بالولاء، من خلال تعيين ولاة عثمانيين

---

(1) فاطمة الزهراء آيت بلقاسم، "نظام الحكم العثماني في الجزائر وتونس –دراسة مقارنة–"، مجلة قرطاس الدراسات الحضارية والفكرية، عدد4، 2017، ص39 وما يليها.

(2) أنظر: بثينة عباس الجنابي، "نظام الحكم والإدارة العثمانية في الوطن العربي"، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 71، 2011، 150 وما يليها.

لا يبقون في الحكم طويلا ويعينون لمدة ثلاث سنوات –على الأرجح– مخافة أن يستقلوا عن الدولة المركزية.

عاش العرب في ظل العثمانيين على سيرتهم السابقة، مع تغيرات طفيفة، وانقسمت المجتمعات العربية إلى طوائف متعددة سواء دينية أو حرفية، أنشأت الدولة العثمانية وظيفة السروجي ومهمته جمع المال من الولايات المختلفة، وفي ظل هذا النمط من الحكم القائم على ولاة مؤقتين وشيوخ الطوائف ترسخت فجوة كبيرة بين الشعوب العربية والدولة العثمانية، وهذا ما جعل بعض المؤرخين والدارسين في التاريخي العثماني والتاريخ الحديث عموما؛ يلخص العلاقات العثمانية ببلاد العرب تتلخص في ثلاث كلمات فقط؛ مال، سيادة وسيطرة، غير أن الميل كل الميل لهذا الطرح يعد تجنيا عن الحقيقة التاريخية وعن الموضوعية سواء.

فالمقابل؛ يجب أن ننصف الدولة العثمانية، هذه الدولة مترامية الأطراف المتربعة على ثلاث قارات، كانت تدافع عن الدين الإسلامي والمذهب السني، لا يمكنها أن تحكم هذه الأقاليم بنظام واحد موحد، ولكن يكفي أنها كانت ترسل الحملات العسكرية إلى البحار؛ بحر العرب، والبحر الأحمر، والبحر المتوسط، والمحيط الهندي من أجل فتح البلدان ونشر الإسلام والدفاع عن المسلمين في عمان، والأندلس والفلبين وغيرها من الأصقاع البعيدة.

يمكن أن نقول ببساطة أن نظام الحكم العثماني في البلاد العربي وبقية البلدات التي خضعت لها؛ كان نظاما موزعا إلى أقاليم ذات مركزية في التسيير والإدارة، إذ قسمت تلك البلدان ومنها البلدان العربية إلى ولايات شبه مستقلة عن بعضها البعض تماما، وأيانا شبه مستقلة عن السلطان الذي كان يحكم بواسطة وحدات الفرق المجندة الانكشارية بطريقة غير مباشرة، وهو ما شكل عائقا حقيقيا أما تقدم الدولة العثمانية لا سيما في سياسة الإصلاح التي اتخذتها في القرون التأخرة.

وقد بلغ عدد الولايات التابعة للدولة العثمانية في أوائل القرن 19 الميلادي حوالي 32 ولاية منها 13 ولاية عربية، وهي ولاية الشام، ولاية طرابلس، ولاية حلب، ولاية الرقة، ولاية الموصل، ولاية شهرزور، ولاية البصرة، ولاية بغداد، ولاية الأحساء، ولاية الخبش، ولاية الجزائر، ولاية طرابلس الغرب، وأخيرا ولاية تونس[1].

كانت هذه التقسيمات الإدارية تسمى إيالات يحكمها الوالي الذي قد يتسمى بالكثير من الأسماء حسب مكانته السياسية والمكانة والأهمية الاستراتيجية للولاية، مثل بيلر باي، أو بيلربك، أو باي أو داي أو باشا، وما إلى ذلك من التسميات المختلفة، يساعده في مهامه أعضاء الديوان والمجندون والعساكر وأصحاب الرتب وحكام الأقاليم والمقاطعات، ومنها قادة محليون آخرون يتسمون حسب اختلاف المناطق، فأحيانا بابا العرب وأحيانا قايد العرب وأحيانا شيخ العرب إلى غير ذلك، هذه الشخصية تعتبر الوسيط بين الأهالي والجهاز الحاكم.

تجدر الإشارة أيضا إلى أن بعض الرتب والمناصب لها مكانتها العالية، كمنصب المفتي والقاضي، ولا سيما قاضي الحنفية، وأيضا منصب أمير ركب الحجيج، الذي يعتبر منصبا دينيا ذا قيمة معنوية شرفية عالية جدا.

كما يمكن الإشارة إلى بعض المناصب الهامة في الولايات المختلفة وهو منصب وكيل الحرج الذي يعتبر بمثابة وزير الخارجية، وكذا باشا الانكشارية الذي يعتبر قائد القوات البرية، كما لا يمكن أن نغفل عن منصب أميرال البحرية العثمانية، أو قائد الأسطول البحري، وأيضا الكاهية وهو المكلف بحفظ الأمن والاستخبارات.

---

[1] أنظر بثينة عباس الجنابي، مرجع سابق، ص151.

ومنصب الكاهية لا يستهان به أبدا، فهو قانونا نائب الوالي في حالة غيابه بشكل تلقائي، إذا فإن أي حالة للشغور لمنصب الوالي تجعل الكاهية خليفة له بطريقة آلية حسب ما تنص عليه بعض القوانين الداخلية في الولايات العربية، كما ان الكاهية يعاون الوالي في إدارة شؤون الولاية بصلاحيات متداخلة نوعا ما، وفي بعض الأحيان يحق له قيادة الجيوش لظروف خاصة.

وأيضا الخزنجي الذي هو بمثابة وزير المالية، وأيضا الدفتر دار الذي هو بمثابة كاتب الدولة أو هو مستشار ومسؤول في وزارة المالية، وتجدر الإشارة إلى أن تلك الرتب والمناصب كثيرا ما كانت توزع في شكل تشريفات شكلية وفيها الكثير من المحاباة، بل وكان البعض من ذوي المال يتحصلون على هذه المناصب من خلال تقديم الرشاوى ونسج العلاقات المختلفة مع رجالات الدولة عن طريق الإنفاق.

المحاضرة الثامنة: حملة نابليون على مصر والشام

بالرجوع إلى الوراء قليلا يمكننا أن نستشف أوضاع مصر في حكم مراد بك، الذي يصفه المؤرخ الجبرتي بقوله: «فاستقر بمشيخة مصر ورياستها وناب نوابها ووزراءها، وعكف مراد بك على لذاته وشهواته وقضى أكثر وقته خارج المدينة... وأخذ في بذل الأموال وإنفاقها على أمرائه وأتباعه... وأخذ يتحجب عن الناس فعظم فيه الهاجس والوسواس... وكان يغلب على طبعه الإقدام مع عدم الشجاعة، ولم يعهد عليه أنه انتصر حرب باشره أبدا، على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور...»[1]، ومن خلال هذا المقتطف يمكننا أن نتصور الوضع الذي آلت إليه مصر قبيل التدخل الفرنسي فيما عرف في التاريخ بحملة نابليون على مصر 1798م.

الحملة الفرنسية على مصر هي حملة عسكرية قام بها الإمبراطور نابليون بونابرت على مصر والشام (1798-1801م) بهدف إقامة قاعدة في مصر تكون نواة لإمبراطورية فرنسية في الشرق من ناحيه، وقطع الطريق بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند من ناحية أخرى وأيضا لاستغلال مواردها في غزواته في أوروبا، استمرت الحملة 3 سنوات وعشرين يوما –حسب ما يذكر المؤرخ المصري الجبرتي–، كان لها الأثر الكبير على العالم الاسلامي عموما وعلى مصر خصوصا.

ذكر أن القوة الفرنسية التي سارت قاصدة مصر قدرت بحوالي 36 ألف جندي، انطلقت يوم 19مايو 1798م انطلقت في أسطول مهيب مكون من 400 سفينة تقودهم سفينة القائد (أورليان) والتي تحمل اسم أحد أباطرة الرومان الذين غزو الشرق، كان الانطلاق من ميناء طولون، ولما مع الإنجليز أخبار مغادرة نابليون المتجه نحو الشرق؛ أرسلوا خلفه نيلسون ليعترض طريقه، فقصد إلى مالطة ولكنه وجد أن أسطول نابليون غادرها نحو الشرق منذ خمسة أيام، فرجح أنها

---

[1] نقلا عن عبد الرحمن الجبرتي، محمد سعيد العشماوي، مصر والحملة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص31.

تقصد مصر واتجه إلى الإسكندرية وبلغها يوم 28 يونيو 1798م، وأمكنهم الحال للرسو والإنزال بكل سهولة[1].

الملحق المرفق رقم 12: رسم تخيلي للإنزال الفرنسي في الإسكندرية

كان الإنزال في ساحل الإسكندرية ليلا، ثم سير مضر الجيش إلى مدينة الإسكندرية، ووجه نابليون في اليوم ذاته نداء إلى الشعب المصري، وأصدرت الحملة نداء إلى الشعب بالهدوء والتعاون وأن نابليون قد اعتنق الإسلام وأصبح صديق وحامي الإسلام، في مشهد مخادع يدل على استهتار نابليون بالمصريين والتقليل من قيمتهم، وهذا راجع إلى سابق معرفة لنابليون بذهنية وطبيعة الشعوب

[1] *Eric Anceau, Bonaparte et l'Égypte, Clio. V. C, n. d, p06.*

المسلمة ذات العاطفة الدينية، ولا شك أن نابليون كان على اطلاع على الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المتردي الذي كانت تعيشه مصر في تلك الأثناء، ومن اجل ذلك ادعى أنه قدم إلى مصر "للاقتصاص من المماليك "ومعاقبتهم لا غير، باعتبارهم أعداء السلطان، وأعداء الشعب المصري وهذه رسالة نابليون بونابرت الذي دعاه المؤرخين المسلمين الجنرال علي إلى شعب مصر.

يصور لنا عبد الرحمن الجبرتي واقعة سقوط مصر في ثلاثة أرباع الساعة في معركة أمبابة، بنوع من الأسف والحسرة، لا على الحدث التاريخي العسكري؛ بل لحال المصريين وتخلفهم واحتشامهم أمام القوات الإمبراطورية الفرنسية، وفي هذا يقول الجبرتي: «... ودق طبوله وأرسل بنادقة المتتالية والمدافع...، بحيص خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع الساعة، ثم كانت الهزيمة على العسكر الغربي، فغرق الكثير من الخيالة في النهر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا، والبعض وقع أسيرا في أيدي الفرنسيين اللذين ملكوا المتاريس، وفر مراد بك ومن معه...»[1].

رد فعل المصريين على حملة نابليون:

تضاعفت الأزمات على نابليون وجيشه، فلا يكاد يمر يوم بلا هجمات يشنها العرب أو الترك أو المماليك غير المؤتلفين مع سادتهم الجدد – على القوات الفرنسية، وفي 22 أكتوبر عام 1798 قامت جماهير القاهرة بثورة على الفرنسيين الذين قمعوا الثائرين، وتخلى نابليون لفترة عن دور الفاتح المتسامح، فأمر نابليون بأن تقوم المدافع الموجودة على جبل المقطم بضرب القاهرة فدكت متاريس وتحصينات الثوار ثم أمر بضرب الأزهر لكونه مركز الثورة ودخلت الخيول الفرنسية الأزهر الشريف وقتل الجنود كل من وجوده أمامهم وتم حرق الكتب وبعد أن رأى شيوخ الأزهر هذا الوضع الكارثي توسلوا إلى نابليون حتى يأمر بوقف القمع فوافق.

[1] محمد سعيد العشماوي، مرجع سابق، ص ص 42، 43.

والواقع أن هذه الحركات لم تكن ثورات منظمة بقدر ما كانت فوضى عارمة شارك فيها الجميع، وفي هذا الصدد ينقل العشماوي عن الجبرتي قوله: «... اجتمعت أوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بك ومراد بك...، وأحرقوهما، ونهبوا أيضا عدة بيوت من بيوت الأمراء المماليك، وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك، وباعوه بأبخس الأثمان»[1].

أثر الحملة على مصر:

يرى الكثير من الباحثين والمؤرخين في مصر والعالم أن المشروع النابليوني كان في الأساس مشروعا إنسانيا حضاريا، وليس مشروعا استعماريا، في حين يرى البعض الآخر أنه فعل طبيعي في التاريخ ضمن متطلبات السياق والسياسي والحضاري للعصر الحديث، غير انه وفي كل الأحوال لا يمكن أن ينكر الإنسان تلك الآثار الإيجابية التي كانت جراء حملة نابليون، فمثلا يظهر نابليون أهم الميزات السيئة في الإدارة المملوكية لمراد بك والدعوى العامة لمحاربة الفساد والرشوة، والدعوة أيضا للتسامح الديني والتصالح، وأنه يبشر بمشروع خيري يعود على كامل البلاد بالأمن والأمان والرفاه، كما ذكر أنه مستعد لإصلاح النظم الإدارية، مع الاحتفاظ بالمؤسسات الروحية والمقدسة وكذا سلطة الشيوخ والأئمة.

الملحق المرفق رقم 13: صورة لمقتنيات نابليون الأثرية في متحف اللوفر

[1] العشماوي، مرجع سابق، ص47.

في 22 أغسطس ، قام ترميم أحد أجمل القصور في القاهرة، وهو قصر حسن كاشف، وهو معهد للعلوم والفنون مستوحى من نموذج المعهد الفرنسي، كما قدم نابليون اقتراحات حول تطوير الجيش والتسليح، وكذا نوه على ضرورة استغلال مياه النيل، والاهتمام بالتعليم وانعاش الاقتصاد وغيرها...، أما على المستوى الحرفي والصنائع والحياة اليومية؛ فقد شجع صناعة المسابك، والأقفال، والنجارة ... وباء المطاحين وتحسين أفران الخبز أو إعادة تأهيل القنوات؛ تم إعادة إحياء فكرة قناة بين النيل والبحر الأحمر وهو المشروع الحلم الذي راود الكثيرين منذ العصور القديمة[1].

أما على المستوى الحضاري التاريخي، فلا يمكن أن نتجاهل أبدا اللجنة العلمية أو الترسانة العلمية للعلماء والآثاريين الذين رافقوا الحملة واللذين لهم كل الفضل في اكتشاف أو إعادة اكتشاف للمصريين لآثار بلدهم: الحفريات الأثرية في طيبة والأقصر والكرنك وغيرها...، كما حث السكان على تعلم اللغة الفرنسية وأسس جريدتين في سابقة لم عرفها البلاد، فكان له الفصل في إدخال الطباعة التي لم تكن معروفة في مصر إلا مع الحملة الفرنسية[2].

حملة نابليون على الشام (مارس 1799م

عندما سمع نابليون أن العثمانيين يتجهزون لاستعادة مصر صمم على التقدم إليهم بعيدا عن مصر لإبعادهم عنها، فأعد ثلاثة عشر ألفا من رجاله إلى الشام، وانطلق في 10 فبراير سنة 1799م واستولى على العريش، وأتم عبور صحراء سيناء وقد عانى الجيش جراء تلك الرحلة كثيرا من العطش والتعب فقد اضطروا لأكل الكلاب والحمير والجمال[3].

وفي 3 مارس توقفت القوات الفرنسية أمام مدينة يافا ذات الأسوار والسكان المعادين وحصن يدافع عنه ما يزيد عن 4000 مقاتل تركي من ذوي البأس، فأرسل نابليون يعرض عليهم شروطا،

---

[1] *Eric Anceau,* OP.CIT, p03.

[2] *IBID*, p03.

[3] جميل بيضون وآخرون، تاريخ العرب الحديث، ط1، دار الأمل، 1991، ص77.

لكنهم رفضوها، وفي 7 مارس أحدث المهندسون العسكريون الفرنسيون في أسوار المدينة ثغرة اندفع الجنود خلالها فقتلوا من قاومهم من السكان وسلبوا المدينة، وأرسل نابليون، "يوجين دي بوهارنيه " لإعادة النظام في المدينة فعرض حق الخروج الآمن لكل من يستسلم، وسلم جنود الحصن أسلحتهم حتى لا يلحق الفرنسيون مزيدا من الدمار في المدينة، وسيقوا أسرى إلى نابليون، فرفع يديه فزعا وتساءل : "ماذا يمكنني أن أعمل معهم؟ "فلم يكن نابليون يستطيع أن يأخذ 4000 أسير معه في مسيرته تلك فالرجال الفرنسيون بذلوا قصارى جهدهم ليجدوا الطعام والشراب لأنفسهم، ولا يمكنه تدبير عدد كاف من الحراس لاصطحاب هؤلاء الأسرى ليسجنوا في القاهرة، وإذا هو أطلق سراحهم فما الذي يمنعهم من حرب الفرنسيين ثانية فعقد نابليون اجتماعا عسكريا وسألهم عن رأيهم في هذه المشكلة، فكان رأيهم أن أفضل حل هو قتل هؤلاء الأسرى طعنا بالحراب لتوفير الذخيرة!! [1].

حصار عكا

وواصل الغزاة مسيرتهم، وفي 18 مارس وصلوا إلى مدينة عكا شديدة التحصين، وكان يقود المقاومة الجزار باشا يساعده أنطوان دي فيليبو – الذي كان زميلا لنابليون في الدراسة في بريين، وحاصر الفرنسيون المدينة دون مدافع حصار ذلك أن مدافع الحصار التي كان قد تمَ ارسالها من الإسكندرية بحرا استولى عليها أسطول إنجليزي بقيادة السير وليم سدني وسلمها إلى حصن المدينة (عكا) وراح يزود حاميتها بالطعام والمواد اللازمة في أثناء الحصار. وفي 20 مايو بعد أن قضى الفرنسيون شهرين أمام أسوار المدينة وتكبدوا خسائر فادحة أمر نابليون بالعودة إلى مصر، وقد ذكر نابليون بعد ذلك متفجعا: "إن فيليبو جعلني أتراجع عن عكا ، فلولاه لأصبحت سيد مفتاح الشرق ولأمكنني الذهاب إلى القسطنطينية واستعادة الإمبراطورية الشرقية"، لقد مات خيالي عند عكا، لن أسمح لها أبدا بالتداخل معي مرة أخرى[2].

---

[1] أحمد طحان، تجاعيد في وجه الزمن العربي، دار الفارابي، بيروت، 2001، ص221.

[2] للمزيد حول توسعات وإنجازات نابليون في مصر والشام أنظر:

يختلف المؤرخون في تقييمهم لحملة نابليون، فمنهم من اعتبرها رحلة مجنونة من اجل الثروة والمال والآثار، ومنها ما يعتبرها منعطفا تاريخيا أعاد هيكلة الموازين الدولية في منطقة المتوسط كاملة، وآخرون اعتبروها لا تنفصل أبدا عن الحركة الاستعمارية التوسعية التي بدأتها الإمبراطوريات التقليدية كإسبانيا وبريطانيا في العالم الجديد، والتي تلتها محاولات أخرى للتوسع والاحتلال نحو الشرق.

Pascal CYR, L'expédition militaire de Bonaparte en Egypte (1798-1799), Mémoire de maîtrise en histoire, Département d'histoire et de sciences politique de l'Université de Sherbrooke, Canada, 2001.

المحاضرة التاسعة: مصر في عهد محمد علي باشا وخلفاؤه من بعده

بعد جلاء الفرنسيين تنازعت القوى المتحالفة والمكونة من الإنجليز والعثمانيين والمماليك حكم مصر. رأى البريطانيون في نهايته الانسحاب من الصراع لينتهي بتولي محمد علي الحكم في مصر، وكان محمد علي رئيسا للجند الألبان الذين اشتركوا في الحملة العثمانية القادمة لإخراج الفرنسيين من مصر. ولم يرض ذلك المماليك بالطبع فتصارع معهم حتى قضى عليهم في مذبحة القلعة عام 1226هـ، 1811م وهرب من نجا منهم إلى شمالي السودان[1]. ومن هنا يتبين لنا أن محمد علي كان يتحين الفرص لكي يقوم باعتلاء العرش في مصر، وأحسن فرصة أتيحت له هي ثورة الشعب على خورشيد باشا.

عرف باسم محمد علي باشا وبالتركية الحديثة **Kavalalı Mehmet Ali Paşa** ؛ وبالألبانية **Mehmet Ali Pasha** ، الملقب بالعزيز أو عزيز مصر، هو ومؤسس الأسرة العلوية حكم مصر في فترة 1805 إلى 1848م، ويذكر في التاريخ بأنه "مؤسس مصر الحديثة" وهي مقولة كان هو نفسه أول من روج لها.

خاض محمد علي في بداية فترة حكمه حربا داخلية ضد المماليك والإنجليز إلى أن خضعت له مصر بالكلية، ثم خاض حروبا بالوكالة عن الدولة العلية في جزيرة العرب ضد الوهابيين وضد الثوار اليونانيين الثائرين على الحكم العثماني في المورة، كما وسع دولته جنوبا بضمه للسودان، وبعد ذلك تحول لمهاجمة الدولة العثمانية حيث حارب جيوشها في الشام والأناضول، وكاد يسقط الدولة العثمانية، لولا تعارض ذلك مع مصالح الدول الغربية التي أوقفت محمد علي وأرغمته على التنازل عن معظم الأراضي التي ضمها.

---

[1] أحمد الشويخات، مرجع سابق، أنظر مادة محمد علي.

خلال فترة حكم محمد علي، استطاع أن ينهض بمصر عسكريا وتعليميا وصناعيا وزراعيا وتجاريا، مما جعل من مصر دولة ذات ثقل في تلك الفترة، إلا أن حالتها تلك لم تستمر بسبب ضعف خلفائه وتفريطهم في ما حققه من مكاسب بالتدريج إلى أن سقطت دولته في 18يونيو سنة 1953م، بإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في مصر.

في عام 1222هـ، 1807م تعرضت مصر لحملة بريطانية بقيادة فريزر بغرض الضغط على السلطان العثماني لكي لا يعقد أي اتفاق مع الفرنسيين. واستطاعت الحملة أن تنزل الإسكندرية بعد مقاومة محدودة، وتقدمت إلى القاهرة، إلا أنها عندما مرت بمدينة رشيد، فوجئت بهجوم مكثف من السكان الذين استطاعوا ردها. وكان محمد علي قد أرسل كتيبة من الجند للمشاركة في القتال. وبانتصار أهل رشيد، احتسب محمد علي لنفسه ذلك النصر وبسط نفوذه. بعد ذلك أخذ يدعم حكمه بتنظيم الجهاز الإداري بتركيز الأمور في يده .كما أنشأ نظاما تعليميا حديثا لأول مرة في مصر، واستعان بالخبرات الأجنبية في إجراء مختلف الإصلاحات وأرسل أبناء البلاد للتخصص في أوروبا. وأنشأ المدارس الحربية وجلب الخبراء العسكريين من فرنسا لتدريب ضباطه وبنى بحرية عسكرية ومدنية إلى جانب التطور الهائل الذي طرأ على الزراعة باستصلاح مزيد من الأراضي وشق الترع وإقامة السدود. كذلك قاد حركة تطوير للصناعة المحلية تخلى على إثرها من استيراد كثير من السلع من الخارج ونشطت حركة التجارة المحلية والدولية. ثم أخذ يؤسس جيشا حديثا لتوطيد حكمه وبناء إمبراطورية عظمى وكان واضحا أن محمد علي قد جاء ليؤسس ملكا لا ليحكم نيابة عن السلطان العثماني.

تعتبر سنة 1841 سنة مهمة في تاريخ مصر وتاريخ الأسرة العلوية الحاكمة في البلاد، وهي السنة التي أقر فيها الباب العالي بفرمان رسمي سلطاني إمكانية توارث أبناء محمد علي الحكم في البلاد، ولعل هذا الحكم يخالف تماما ما كانت عليه بعض الأقاليم والولايات التي لم يكن يسمح

لحاكمها بأن يشغل الحكم لمدة تفوق العامين[1]، وهذا الإجراء الفرمان المهم الذي تحصل عليه محمد علي هو بالطبع نتيجة تفوق محمد علي وسيطرته على البلاد لفطرة طويلة، ولهذا كان من المحتمل جدا أن يورث محمد علي الحكم لأحد أبناء كما كان من المحتمل أيضا دخول البلاد في فوضى عارمة بعد وفاة محمد علي.

أرسل محمد علي جيشا إلى شبه الجزيرة العربية فاحتل معظم أجزائها، وبعث بجيش آخر ضم به شمال وأواسط السودان إلى دولته، وإن كان قد فقد هناك ابنه إسماعيل الذي أحرقه السودانيون بقيادة الملك نمر في منطقة شندي. وبذلك تحقق لمحمد علي حلمه في بناء دولة كبيرة بعيدة عن النفوذ العثماني المباشر[2].

الملحق المرفق رقم 14: لوحة لمحمد علي باشا

[1] خالد فهمي، كل رجال الباشا محمد علي وجيه وبناء مصر الحديثة، ترجمة شريف يونس، ط2، دار الشروق، د.م، د.ت، ص27.

[2] أحمد الشويخات وآخرون، أنظر مادة محمد علي.

حكم مصر بعد محمد علي مجموعة من أحفاده، عباس وسعيد وإسماعيل. وقد حاول بعضهم إكمال خطط محمد علي في بناء دولة حديثة، إلا أن أحداثا كثيرة محلية ودولية اعترضت سبيلهم أحيانا. كما كان تدخل قناصل الدول العظمى في سياستهم واستبدالهم وإلغائهم أحيانا لخطط التنمية وتدهور الاقتصاد وتراكم الديون أثرا في تعطيل تلك المسيرة. ثم كان انسحابهم من الجزء الآسيوي من إمبراطورية محمد علي .وعلى الرغم من تباين مقدرات أولئك الحكام وتباين إنجازاتهم، إلا أنهم التقوا في عدم ولائهم للبلاط العثماني وفي حرصهم على استقلال دولتهم[1].

محمد علي ومشروع الإصلاح وبناء الدولة الحديثة:

لا بد أن الكثير من المؤرخين في مصر والعالم ينظرون إلى شخصية محمد علي على أنها طفرة خاصة في التاريخ، وعنوانا للنهضة العربية الحديثة في جميع المجالات والمستويات، وأنموذج فريد من نماذج الإصلاح، وانطلاقته كانت من المجال العسكري إلى الإداري ثم الاقتصادي، متخذا في ذلك وجهة علمانية مقتفيا بذلك النماذج الأوروبية التي اتضح جيدا أنه معجب بها أيما إعجاب، وفيما يلي مختصر عن سياسته الإصلاحية وأهم المنجزات التي حققها أو انطلق في تحقيقها:

في المجال العسكري:

كان لمحمد علي نضرة خاصة تجاه الجيش، على اعتبار أن الجيش هو النواة الأولى التي يجب أن ينطلق منها الإصلاح والتجديد، ولهذا عمل على تحديث وتسليح وتدريب الجيش من خلال استجلاب المدربين والخبراء الاستراتيجيين من الصرب وفرنسا، ومن مظاهر الإصلاح العسكري محاولته إدخال فرق الإرشاد الطبية والممرضين والتدخلات الطبية الاستعجالية، كما انشأ أول مدرسة للضباط البحرية لتخريج إطارات في الجيش ذوي الكفاءة العالية والثقافة الراقية، كما اعتنى ببناء

[1] أحمد الشويخات وآخرون، مرجع سابق، أنظر مادة تاريخ مصر.

الأسطول وتجهيزه لأنه كان يعرف أن العصر الحديث هو عصر السيطرة على البحار والطرق البحرية بامتياز، وفي هذا الصدد أنشأ ترسانة بولاق والإسكندرية.

الإصلاحات في المجال الإداري:

اهتم محمد علي على غرار العثمانيين باختيار العلماء والمستشارين، فأنشأ الكثير من المجالس الشورية والدواوين، كما اختص هو برئاسة المجلس الأعلى الذي يبث في القضايا المصيرية الهامة في البلاد، ومن بين الدواوين المستحدثة في شكل وزارات مستقلة: ديوان التجارة، ديوان التعليم، ديوان الصناعة، وديوان الصناعة الحربية، سمحت هذه الدواوين لمحمد علي بتنظيم شؤون مصر بالتقدم والتخلص من الفوضى والشعبوية في التسيير، وبناء دولة مؤسسات.

الاهتمام بالزراعة:

قام محمد علي بإلغاء كل القوانين والالتزامات على الأراضي، كأراضي المماليك والإقطاعيين والملاك الخواص، حتى تلك الأراضي والعقارات التي كانت تابعة للأوقاف فقد سحبها من المشايخ والأئمة والهيئات المحلية التي كانت تشرف عليها، ووجهها إلى جهات إدارية متخصصة لتنظمها، اهتم محمد علي أيضا بالإنتاج والنوعية والإنتاجية واهتم بمجال الري وتحديث أساليبه، وزود الفلاحين بالبذور والمعدات، كما أنشأ المخازن للمحاصيل الزراعية[1].

في المجال الصناعي:

اهتم محمد علي بقطاع الصناعة على غرار اهتمامه بالزراعة، ومن مظاهر الاهتمام هذا؛ إنشاؤه لمصانع الزجاج والحديث والجلود والورق وتصنيع الأسلحة وتركيبها، وكذا الاهتمام بالصناعة النسيجية الحريرية والقطنية، وأراد بكل هذا غزو السوق ومنافسة الدول المنتجة على اعتبار أن مصر أيا دولة

[1] بليل رحمونة، مشروع محمد علي النهضوي، ضمن محاضرات الدولة العثمانية والمشرق العربي، جامعة مصطفى اسطمبولي، 2019- 2020.

غنية ولها من المؤهلات والإمكانات ما يجعلها في الريادة، كما اهتم أيضا باستقبال الكفاءات والأيدي العاملة وتكوين العمال وتدريبهم، إما بإرسالهم في بعثات إلى الدول الأجنبية أو من استجلاب الخبراء والمدربين لهم في مصر، وهذا ما يجعل المصريين يشتغلون في الصناعة بأعداد كبيرة.

الجوانب التجارية:

كان محمد علي يرى أن المواصلات هي شريان التجارة، ولأن الطرق التجارية البرية قد تراجعت بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح كما تأثر البحر الأبيض المتوسط جراء هذا أيضا، هنا أراد محمد علي ربط القاهرة والإسكندرية بطريق خاص سنة 1918م، كما أنشأ مجموعة من الطرق السلطانية تربط أرجاء البلاد بعضها ببعض من أجل تنشيط التجارة الداخلية والخارجية، وأيضا حاول محمد علي احتكار بعض السلع من أجل الاتجار بها، ومنعها على التجار المحليين، مثل البن والتبغ وغير ذلك، وبهذا شكل محمد علي مؤسسة تجارية عمومية لها الصلاحيات الكبرى في المعاملات التجارية.

الإصلاحات في الجانب التعليمي والثقافي:

لم يكن محمد علي مهتما بالفرد وتعليمه فقط بل كان مهتما بكامل الجيل، فتبنى فكرة إنشاء جيل قوي مبني فكريا على الطراز الغربي، فبدأ أولا بالبعثات العلمية إلى أوروبا وقدرت ب 11 بعثة كان آخرها سنة 1847م، موجهة إلى الكثير من الوجهات في أوروبا، كإيطاليا وفرنسا وبريطانيا، ولم تكن هذه البعثات ذات اختصاص واحد بل متعددة الاختصاصات، كالفنون العسكرية والهندسة الصناعية وبناء السفن، والطباعة والهندسة المعمارية والطب وغير ذلك، وقد أراد تعميم الطباعة في الكثير من المناطق في مر وكذا إنشاء الجرائد، فكانت جريدة الوقائع أول جريدة مصرية تطبع مصر[1].

أثار محمد علي بعمليات تحديثه لمصر عداوة بريطانيا له حيث كانت تخشى وجود دولة قوية في مصر ذات الموقع الجغرافي المهم. ونجحت بريطانيا عام 1257هـ، 1841م في إجبار محمد علي

[1] بليل رحمونة، مرجع سابق.

على قبول الأمر (الفرمان) العثماني العالي الذي حدد حجم القوات المسلحة المصرية بما لا يتجاوز 18 ألف جندي. وبموت محمد علي؛ تدهورت الصناعات المصرية إلى حد كبير، وتم إغلاق كثير من المدارس التي شيدها. ولم يكن خلفاء محمد علي في مثل قوة شخصيته وقدرته القيادية. وقع ابنه سعيد باشا الذي حكم مصر خلال الفترة الممتدة بين عام 1271 - 1280هـ، 1854 - 1863م اتفاقية مع شركة فرنسية لشق قناة عبر برزخ السويس تربط بين البحرين الأبيض المتوسط والأحمر لتقصر المسافة بين أوروبا وآسيا. وبدأ حفر القناة بالفعل عام 1276هـ، 1859م. وافتتحت للملاحة البحرية عام 1286هـ، 1869م .وحكم إسماعيل . خليفة سعيد . مصر خلال الفترة الممتدة بين عامي 1280- 1296هـ،1879-1863 م ونجح في الحصول على لقب خديوي من الدولة العثمانية. وعمل الخديوي إسماعيل على تطوير المؤسسات التعليمية في مصر وإنشاء الطرق وشق القنوات والسكك الحديدية والتوسع في زراعة القطن وتصديره إلى الأسواق العالمية، إلا أنه أنفق أموالا ضخمة . وبإسراف شديد . على بناء القصور ورصف الطرق وعلى كثير من مظاهر الترف مما أدى إلى تضخم ديون مصر. وفي محاولته لتدبير النقد اللازم لسداد هذه الديون عرض حصة مصر من أسهم قناة السويس للبيع وأسرعت الحكومة البريطانية بشرائها عام 1292هـ، 1875م، وبذلك أصبحت بريطانيا أكبر مساهم في شركة قناة السويس[1].

الملحق المرفق رقم 15: لوحة لرفاعة رافع الطهطاوي كما تخيله أحد الرسامين

[1] أحمد الشويخات وآخرون، مرجع سابق، لأنظر مادة تاريخ مصر,

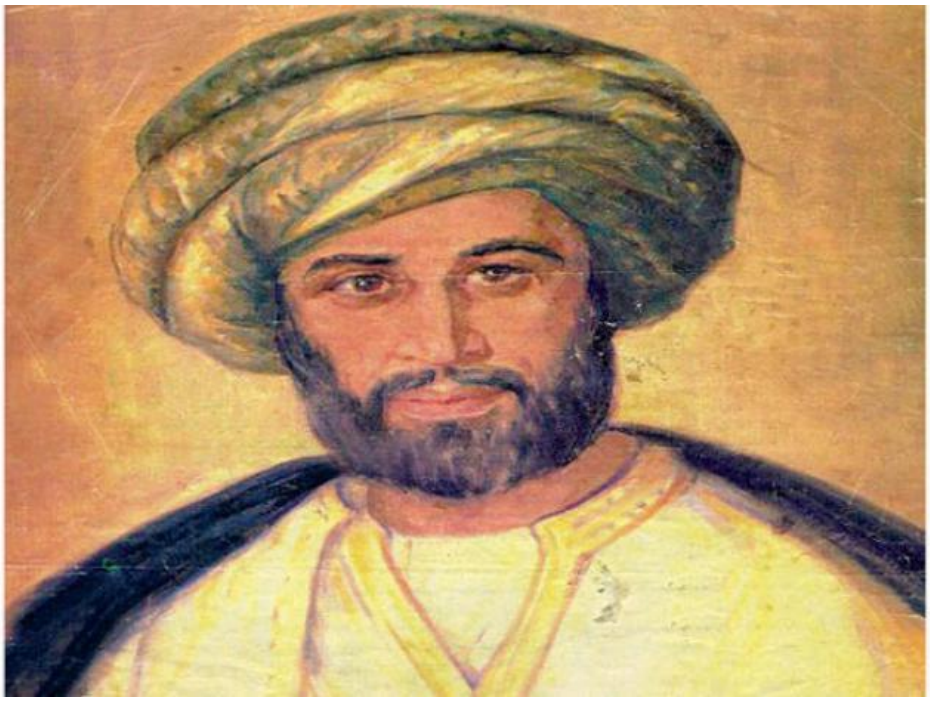

وفي الأخير وجب أن ننوه أن النظرة العميقة والمحاولة الجادة للتحديث والإصلاح في مصر لم تكن نظرة قادرة على التأسيس لدولة قوة، بقدر ما أسست حاكما قويا في دولة، فهناك الكثير من الناس والعامة والعلماء والفضلاء في ذلك العصر وفي العصر الحالي يرون أن مشروع محمد علي لم يكن مشروع أمه ولكنه كان مشروح إنسان طموح أو عائلة مالكة امتد بها الطمع للسيطرة على كل شيء في مصر، فهذا المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي يقول عن حكم محمد علي لمصر: « فتح بابه للنصارى من الأروم والأرمن، فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم، كما أنه كان يحب السيطرة والتسلط ولا يأنس لمن يعارضه»، كما ان بعض المؤرخين يعتبرون محمد علي شخصا مغامرا ساعده دهاؤه على تحقيق أهدافه الخاصة على حساب أهداف الأمة، وفيهم من يبالغ إلى حد القول بأن هدفه كان تحطيم الإسلام والقضاء عليه في البلاد.

محمد علي باشا ضد الدعوة الوهابية في الحجاز:

الدولة السعودية الأولى عد العثمانيون الإجراء السعودي المتمثل في ضم إقليم الحجاز إلى الدولة السعودية الأولى وحرمانهم من لقب حامي الحرمين الشريفين بمثابة تَحَد ديني وسياسي يواجه

سيادتهم على العالم العربي الإسلامي .وبناء على تلك المتغيرات والمستجدات قررت الدولة العثمانية إسناد مهمة التحدي العسكري لتلك الدولة إلى محمد علي باشا واليها في مصر بعد فشل ولاية العراق من جهة، وعجز ولاية الشام من جهة ثانية، ومن الواضح أن الدولة العثمانية حاولت القضاء على الدولة السعودية الأولى من خلال قوات ولاياتها العربية المجاورة لتلك الدولة، ومن خلال استخدام طاقات تلك الولايات واقتصادها، خصوصا وأن الدولة العثمانية وقتذاك كانت جد مشغولة في أمورها الداخلية من جهة، وأمورها الخارجية من جهة أخرى.

وهناك دوافع وأسباب أدت بالعثمانيين إلى إسناد تلك المهمة إلى ولاية مصر ووواليها محمد علي باشا، حيث إن ولاية مصر أكبر الولايات العربية العثمانية في المنطقة، وهي ذات إمكانات بشرية واقتصادية ومالية كبيرة، بالإضافة إلى خبراتها الحربية وتجاربها السياسية والإدارية مع مناطق الجزيرة العربية خصوصا الجانب الغربي منها. ولم تكن تلك التجارب وليدة فترة زمنية محدودة، أو حقبة تاريخية معينة، وإنما هي تجارب تاريخية ممتدة على فترات تاريخية متشابكة ومتعاقبة. ويعد هذا التكليف بمثابة جس نبض لمحمد علي باشا، وامتحان لابد أن يدخله ويجتازه حتى يحافظ على زعامته.

وأول تكليف رسمي وجه إلى محمد علي باشا كان في عهد السلطان مصطفى الرابع، وذلك عام 1222هـ، 1807م، استنادا إلى معلومات الوثائق العثمانية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة. وقد اعتذر محمد علي في بادئ الأمر متعللا بالمشكلات الاقتصادية والظروف الصعبة التي تمر بها ولايته نتيجة تمكن المماليك من السيطرة على صعيد مصر، ونتيجة لانخفاض الفيضان في نهر

النيل، بالإضافة إلى ما أبداه من مخاوف تجاه أطماع الدول الأوروبية في ولايته. ولكن مع هذا كله اضطر محمد علي باشا إلى قبول الأوامر والإذعان لمطالب السلطان [1].

[1] عايض بن خزام الروقي، حروب محمد علي في الشام وأثرها في شبه الجزيرة العربية 1831- 1839، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، منشورات جامعة أم القرى، مركز دراسات الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، 1986، ص129 وما يليها.

المحاضرة العاشرة: الدعوة الوهابية وإمارة الشرفاء في الجزيرة العربية

الدعوة السلفية:

دعوة إصلاحية حمل لواءها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ودافع عنها أمير الدرعية محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بموجب تحالف عقد بينهما في بلدة الدرعية عام 1157هـ، 1744م.

انتشر الشرك في نجد وغيرها خلال القرن الثاني عشر الهجري، وكثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور والتبرك بها والنذر لها، والاستعانة بالجن والذبح لهم، وكثر الحلف بغير الله. فجاءت الدعوة السلفية لتدعو إلى العودة بالعقيدة الإسلامية إلى أصولها النقية، وتؤكد أن التوحيد أساس الإسلام، فسميت أحيانا بدعوة الموحدين، وأطلق عليها البعض اسم الوهابية نسبة لمؤسسها محمد بن عبد الوهاب.

وتستمد الدعوة السلفية مذهبها الفقهي من الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح، وتتبع في الفروع مذهب الإمام أحمد بن حنبل. فالدعوة السلفية لا مذهبية في أصولها، حنبلية في فروعها. وارتكزت الدعوة السلفية على الفهم العميق لأفكار ابن تيمية، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "الإمام ابن القيم وشيخه (ابن تيمية) إماما حق من أهل السنة، وكتبهما عندنا من أعز الكتب غير أنا غير مقلدين في كل مسألة[1].

اهتمت الدعوة السلفية بالتوحيد، وكان شعارها لا إله إلا الله. وركزت على مفهوم توحيد العبودية ﴿أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ النحل: 116 .ومفهوم الأسماء والصفات: وهو إثبات الأسماء والصفات التي أثبتها الله لنفسه، وما أثبتها رسوله [3] له من غير تمثيل ولا تأويل ولا تكييف. ودعا السلفيون إلى فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقا منذ سقوط بغداد عام 656هـ. ونادت

---

[1] أنظر: محمد خليل الهراس، رد على مقال محمد البهي في نقد الوهابية، دار الكتاب العربي، د.م، د.ت، ص11 وما يليها.

الدعوة السلفية بإحياء فريضة الجهاد لإزالة مظاهر الشرك، ومنعت بناء القبور وكسوتها وإسراجها، وعملت على القضاء على البدع والخرافات، وتصدت لشطحات بعض الطرق الصوفية .أبطلت الدعوة دعاء غير الله والاستعانة وطلب الغوث من غير الله، والتوسل إلى الله بالأنبياء والأولياء وغير ذلك من الأمور الشركية. فهي دعوة لإقامة السنة الصحيحة، جاهدت مخالفيها لحملهم على اتباع تعاليم الدين الصحيح[1].

مضى الشيخ، يؤازره الأمير، في نشر الدعوة بربوع نجد. ولما توفي الأمير خلفه ابنه عبد العزيز بن محمد فتابع مناصرة الدعوة مع الشيخ إلى أن توفي في الدرعية حيث دفن، وتعد الدعوة السلفية من أعمق الحركات الإصلاحية الإسلامية، وبلغ تأثيرها الهند وأقاصي المغرب العربي، ولاتزال تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب محل دراسة المفكرين على امتداد العالمين العربي والإسلامي.

الدولة السعودية الأولى وولاة العراق:

حدث صدام مسلح بين الدولة السعودية الأولى وولاة العراق العثماني بعد أن تجمعت عوامل الاحتكاك بين الطرفين، فقد أصبح جنوب العراق ملاذا للقوى المعارضة للدولة السعودية الأولى والدعوة السلفية الإصلاحية، وبرزت عوامل الاحتكاك بشكل واضح بين الطرفين في أعقاب حملة قام بها ثويني بن عبد الله رئيس قبائل المنتفق على القصيم عام 1201هـ، 1786م، ومعه أعداد غفيرة من المنتفق وأهل الزبير وبوادي شمر وغالبية طي، ونازله أهل بلدة التنومة، التي ضربها بمدافعه ودخلها عنوة، ثم توجه صوب مدينة بريدة وحاصرها، لكنه اضطر إلى رفع الحصار عنها عندما سمع بوقوع اضطرابات في بلاده، فقفل عائدا إلى وطنه ليحافظ على مركزه هناك [2].

---

[1] أحمد القطان ومحمد الطاهر زين، إمام التوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، دار الإيمان للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001، ص112 وما يليها.

[2] أحمد الشويخات وآخرون، مرجع سابق، أنظر مادة: لدولة السعودية الأولى.

أرسل الإمام عبد العزيز بن محمد رسالة إلى سليمان باشا والي بغداد العثماني مصحوبة بنسخة من كتاب التوحيد يدعوه إلى الاستجابة، وطلب من الوالي أن يجمع علماء بغداد للنظر فيه والعمل على تطبيق مبادئ الدعوة الإصلاحية، فجاء الرد بالرفض الكامل والقاطع على الرغم من أن حال العراق العثماني لم يكن على ما يرام لكثرة الاضطرابات الداخلية والفتن المحلية والقبلية.

ولما رفض والي بغداد دعوة الإمام عبد لعزيز، هاجم الأمير سعود بن عبد العزيز بأمر من والده قبائل المنتفق عام 1203هـ، 1788م، وبعد ذلك توالت المناوشات والاصطدامات العسكرية بين الدولة السعودية الأولى وولاة العراق العثمانيين، فغزا سعود قبائل الظفير القاطنة في مناطق الحدود العراقية السعودية بسبب موقفها المعادي للدولة السعودية الأولى[1].

نتيجة لذلك أرسل الوالي العثماني سليمان باشا حملة عسكرية منظمة وقوية ضد الدولة السعودية الأولى في الأحساء كانت تحت قيادة ثويني بن عبد الله، وكانت حملته فاشلة، فكان رد السعوديين أن هاجموا مناطق جنوبي العراق تحت قيادة الأمير سعود بن عبد العزيز نفسه، وتوغلوا فيها حتى بلدة أم العباس.

جاء الرد العثماني العراقي، فوجه سليمان باشا، والي بغداد العثماني؛ حملة ضد السعوديين في الأحساء عام 1213هـ، 1798م، وقد وصفت تلك الحملة بأنها منظمة وقوية، ساهمت فيها قبائل المنتفق والظفير وغيرهم من قبائل جنوبي العراق، وعلى الرغم من وصول الحملة إلى الأحساء إلا أنها في نهاية الأمر فشلت ولم تحقق غرضها.

هاجمت القوات السعودية منطقة جنوبي العراق خصوصا بعد أن قتل الخزاعل الشيعة ثلاثمائة رجل من الموالين والتابعين للدولة السعودية الأولى، وذلك عام1214 هـ، 1799م. وهاجم السعوديون مناطق جنوبي العراق عام 1216هـ، 1801م، وهدموا ما شاهدوه هناك من أضرحة

[1] هاشم ناجي، الوهابية بتقارير القنصلية الفرنسية للغداد 1806- 1808، الوراق للنشر، بغداد، 2015، ص146.

وقباب ومزارات بما فيها قبة الحسين، فأصدرت الدولة العثمانية أوامرها المشددة إلى والي بغداد من أجل أن يعمل على وقف الحملات العسكرية السعودية على مناطق جنوبي العراق، وغضب شاه إيران وأراد التدخل العسكري، وطلب من والي بغداد السماح لقواته بالمرور عبر العراق والزحف على السعوديين في الأحساء، وتوالت الحملات السعودية بعد ذلك على مناطق جنوبي العراق حتى وصلت إلى أسوار كربلاء مرة ثانية عام 1223هـ، 1808م[1].

ولابد من الأخذ بعين الاعتبار أن ولاة العراق لم يكونوا قادرين على إضعاف الدولة السعودية الأولى وتهيئة الظروف العسكرية المواتية للقضاء عليها. وظل موقفهم موقفا دفاعيا ضعيفا، مما ثبت في عقول المسؤولين العثمانيين في إسطنبول فكرة عدم جدوى مقاومة الدولة السعودية الأولى عن طريق ولاة العراق، وأصبح لزاما على الدولة العثمانية أن تسند تلك المهمة إلى ولاية عثمانية أخرى.

الدولة السعودية الأولى وأشراف الحجاز:

لم تكن علاقة الدولة السعودية الأولى بأشراف الحجاز أفضل من علاقتها بولاة العراق، بدأت العلاقة سلمية فأرسلت الدولة السعودية الأولى عددا من العلماء إلى مكة لمناقشة علمائها ومحاورتهم في كثير من المسائل الدينية التي تشكل مبادئ الدعوة السلفية الإصلاحية، لكن الأمر لم يستقم في المسار السلمي، بل أخذ الوضع في التدهور خصوصا عندما رفض بعض الأشراف السماح لأتباع الدعوة بأداء فريضة الحج في فترة حكم الأشراف: مسعود بن سعيد، ومساعد بن سعيد، وسرور بن مساعد، وغالب بن مساعد الذي تأزم الخلاف في عهده فأصبح خلافا لا يمكن حله إلا بالوسائل العسكرية، بعدما فشلت الحلول السلمية[2] .

---

[1] لتفاصيل أكثر يرجى الاطلاع على: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص406 وما يليها.

[2] لويس دوكورانسي، الوهابيون –تاريخ ما أهمله التاريخ–، ترجمة مجموعة من الباحثين، رياض الريس للكتب والنشر، د.ت، ص139.

أرسل الشريف غالب حملة تحت قيادة أخيه الشريف عبد العزيز، ولكن تلك الحملة لم تعط النتيجة التي كان يتوقعها الشريف غالب، بل لاحقتها قوات الدولة السعودية الأولى إلى بلدة الشعراء، ورد الشريف غالب على ذلك بأن أرسل حملات عسكرية تأديبية ضد القبائل المؤيدة للدولة السعودية الأولى، فتصدى لها هادي بن قرملة شيخ قحطان المؤيد للدولة السعودية الأولى والمناصر للدعوة السلفية، وذلك عام 1210هـ، 1795م، واستمر الشريف في إرسال الحملات ضد تلك القبائل، وظل الأمر كذلك حتى تمكنت القوات السعودية من إلحاق الهزيمة بالقوات الحجازية عام 1212هـ، 1797م عند بلدة الخرمة، واضطر الشريف غالب إلى طلب الصلح الذي ظل ساري المفعول حتى عام 1217هـ، 1803م، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدولة العثمانية لم تقدم مساعدة للشريف غالب، علما بأن الشريف كان يعلم كل مرة الدولة العثمانية بما يجري في المنطقة[1].

وقد تغير الموقف تماما عندما خرج وزير الشريف، عثمان المضايفي عليه، وأعلن انضمامه إلى الدرعية عاصة السعوديين، مع أن المضايفي هذا هو صهر الشريف غالب، وتمكن المضايفي من محاصرة الطائف، وأنجدته قوات سعودية فاضطر الشريف غالب إلى الانسحاب منها باتجاه مكة المكرمة، فاستسلمت الطائف ودخلها المضايفي وقواته عام 1217هـ، 1803م.

[1] لمزيد من التفاصيل أنظر: علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث –قصة الأشراف وابن سعود–، د.ت، ص 212 وما يليها.

الملحق المرفق رقم 16: خريطة تبين معالم وحدود الدولة السعودية الأولى

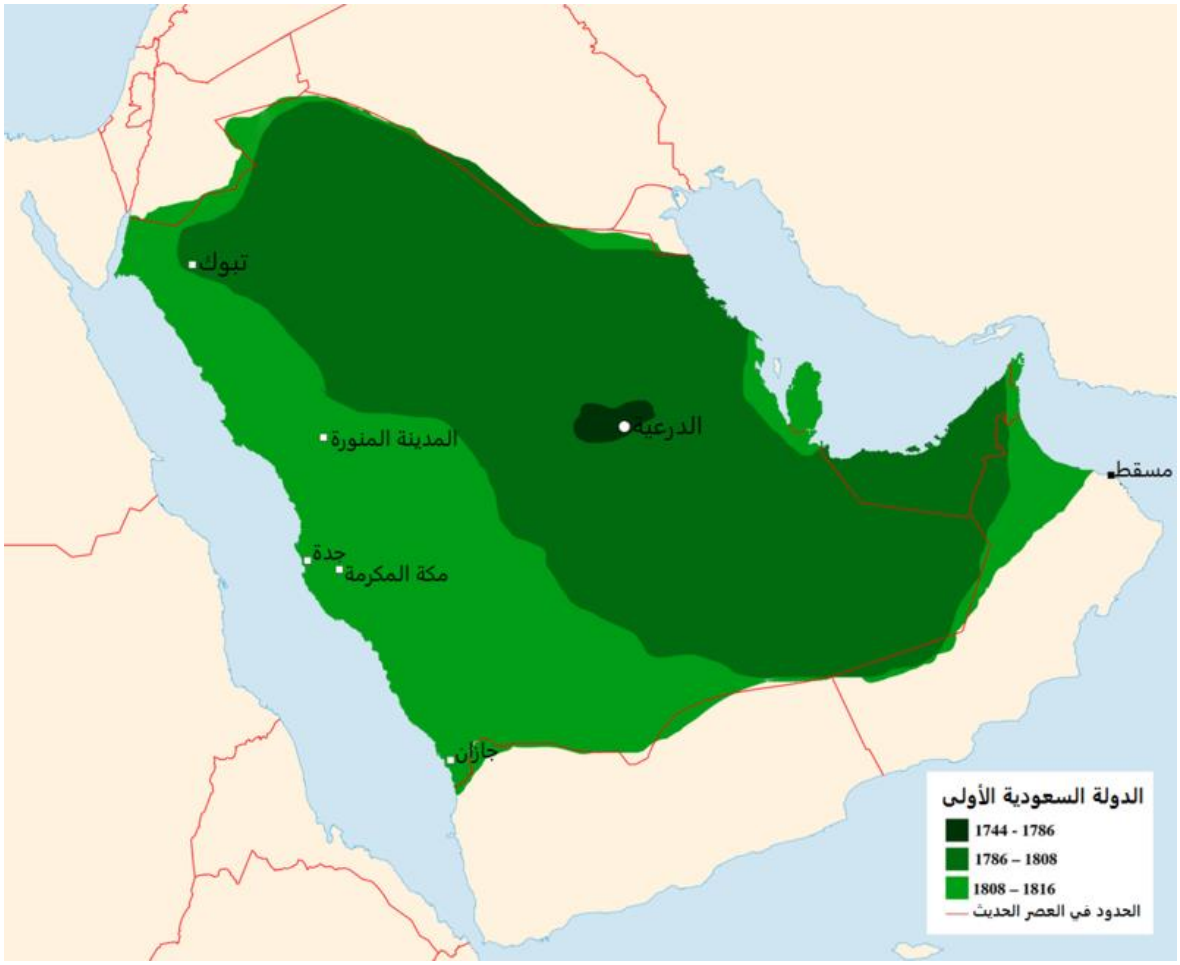

تقدمت القوات السعودية بقيادة الأمير سعود بن عبد العزيز صوب مكة المكرمة في 8 محرم عام 1218هـ، 1803م، ودخلتها بعد انتهاء موسم الحج، وكان الشريف غالب قد غادرها قبل ذلك متوجها إلى جدة، تاركا أخاه الشريف عبد المعين على إدارة مكة المكرمة، يتصرف في أمرها بما تمليه عليه الظروف بالنسبة للموقف السعودي. وقد وافق الشريف عبد المعين هذا على تسليم مكة للقوات السعودية دون مجابهة عسكرية لأن موقف الأشراف الحربي أصبح لا يسمح بذلك، واشترط الشريف عبد المعين على الأمير سعود أن يبقيه شريفا على مكة، فوافق الأمير سعود على شرطه، ودخل السعوديون مكة المكرمة محرمين، وقرئ على منبر المسجد الحرام كتاب الأمان العام لجميع أهالي مكة.

وفي مكة المكرمة ألقى الأمير سعود بن عبد العزيز خطابا جامعا وضح فيه مبادئ الدعوة السلفية الإصلاحية، ودعا الناس إلى هدم القباب المقامة على القبور فهدمت، وأمر بتدريس كتاب كشف الشبهات في المسجد الحرام في حلقة عامة يحضرها العلماء والأهالي.

وأرسل الأمير سعود بن عبد العزيز إلى السلطان سليم الثالث كتابا هذا نصه: «إني دخلت مكة، وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعد أن هدمت ما هناك من أشباه الوثنية وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقا، وثبت القاضي الذي وليته أنت طبقا للشرع الإسلامي، فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء إلى هذا البلد المقدس بالمحمل والطبول والزمور فإن ذلك ليس من الدين في شيء».

الملحق المرفق رقم 17: صورة للأمير سعود الأول مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب

حاصر الأمير سعود بن عبد العزيز مدينة جدة لكنه لم يستطع دخولها لأنها محصنة بالخنادق، وفيها جميع قوات الأشراف والقوات العثمانية المقيمة المساندة لقوات الأشراف. ومعروف أن جدة مدينة محصنة لأنها مركز بحري تجاري مهم بالنسبة للحجاز وبالنسبة للعثمانيين والأشراف[1].

لم تستقم الأمور في مكة للسعوديين، لأنه عندما رجع الأمير سعود إلى الدرعية، عاد الشريف غالب فدخل مكة دون معارضة من أخيه الشريف عبد المعين. ثم تقدم صوب الطائف وكانت فيها قوات سعودية، بالإضافة إلى قوات عثمان المضايفي وأتباعه. فحاصر الشريف غالب الطائف، وأثناء ذلك جاء خبر استشهاد الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود عام1218 هـ. 1803م، وتولى الإمام سعود بن عبد العزيز الحكم خلفا لأبيه[2].

وصل نبأ استرداد الشريف غالب مكة إلى الدرعية، فقرر الإمام سعود بن عبد العزيز أن يضع حدا لتصرفات الشريف غالب، فأمر قواته في مناطق عسير ونواحي تهامة بمهاجمة جدة، وكانت تلك القوات برئاسة عبد الوهاب أبو نقطة، ثم بنى السعوديون حصنا قويا في وادي فاطمة ووضعوا فيه قوات سعودية كبيرة أخذت تهاجم قواعد الشريف غالب في المنطقة، وبعدها أرسلت الدرعية قوات سعودية كبيرة جدا إلى مكة المكرمة فحاصرتها بشدة كي تضعف قوات الشريف غالب عسكريا واقتصاديا ونفسيا حتى يضطر إلى الاستسلام، وبالفعل أدرك الشريف غالب أنه ليس باستطاعته الصمود في وجه القوات السعودية، فاضطر إلى طلب الصلح على شرط أن يبقى شريفا على مكة وأميرا عليها تابعا للدولة السعودية الأولى .وهكذا عادت مكة المكرمة إلى الدولة السعودية الأولى . وبعدها دخلت القوات السعودية المدينة المنورة عام 1220هـ، 1805م[3].

---

[1] لوريس دوكورانسي، مرجع سابق، ص140.

[2] المرجع نفسه، ص95.

[3] أحمد الشويخات وآخرون، مرجع سابق، أنظر مادة: الدولة السعودية الأولى.

الملحق المرفق رقم 18: صورة لمدينة مكة المكرمة في القرن 18م

ومما لا شك فيه أن دخول الدولة السعودية الأولى بلدان الحجاز: مكة والمدينة وجدة والطائف وغيرها قد أدى إلى قيام نوع جديد من العداء الشديد بين الدولة السعودية الأولى والدولة العثمانية صاحبة السيادة والنفوذ في الولايات العربية العثمانية، وخصوصا المسألة الحجازية التي تؤثر على سمعة الدولة العثمانية ومركزها ليس في العالم العربي فحسب، وإنما في العالم الإسلامي كله عندما فقد سلاطينها لقب حامي الحرمين الشريفين، والحق الرسمي في الإشراف على المناطق الإسلامية المقدسة في الحجاز، فرأت الدولة العثمانية ضرورة معالجة مسألة الحجاز ومسألة الدولة السعودية الأولى بشكل حربي سريع، وليس في شكل محاورات ومناقشات سلمية، وعندما تأكدت الدولة العثمانية أن ولاية دمشق غير قادرة على التنفيذ، وأنه ليس بإمكانها فرض الحل الحاسم، وجهت الدولة أوامرها السلطانية إلى محمد علي باشا والي مصر العثمانية للقيام بتنفيذ هذا الحل في صورته الحربية لفرض الأمر الواقع بالقوة، خصوصا وأن الدولة العثمانية دولة قادرة على مواجهة المشاكل الداخلية بيد أنها أصبحت عاجزة أمام الدول العالمية الكبرى وقتذاك.

الشريف حسين 1931 – 1854م:

وهو الحسين بن علي بن محمد بن عون القرشي الهاشمي، يتصل نسبه بالحسن بن علي آخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين، وهو جد الملك حسين، ملك المملكة الأردنية الهاشمية السابق، ووالد الملك فيصل الأول ملك العراق بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. اشتهر بقيادته للثورة العربية ضد الأتراك لمساعدة الحلفاء في الحرب العالمية الأولى.

ولد في الآستانة، عندما كان أبوه منفيا بها، انتقل مع والده إلى مكة، وعمره ثلاث سنوات، تعلم وتفقه، ومارس ضروبا من الفروسية، ووجهه عمه الشريف عبد الله باشا أمير مكة في المهمات، دخل منطقة نجد وأحكم صلته بالقبائل، مات والده وعمه، وآلت إمارة مكة إلى عمه الثاني عون الرفيق، فلم يكن معه على وفاق، فطلب إبعاده إلى الآستانة، فنفي إليها سنة 1309هـ، 1891م، وجعل فيها من أعضاء مجلس شورى الدولة .وعندما توفي عون ثم عمه الثالث عبد الإله، عين أميرا لمكة سنة 1326هـ، 1908م، فعاد إليها، وقاد حملة ضد الإدريسي ببلاد عسير، مؤازرة للأتراك[1].

عندما نشطت جمعية تركيا الفتاة السرية بوساطة حزبها العلني الاتحاد والترقي في سياسة تتريك العناصر العربية داخل الدولة التركية، وقتلت وشردت جمهرة من أمراء العرب؛ ساد في الوطن العربي شعور بالاستياء من الدولة العثمانية، فكونوا جمعية سرية خاصة بهم وانتهز البريطانيون الفرصة أثناء الحرب العالمية الأولى التي خاضها الحلفاء، ومنهم بريطانيا، ضد ألمانيا وبقية دول المحور، ووقفت تركيا مع ألمانيا، فاتصلوا بالشريف حسين ودارت مكاتبات ومحادثات عرفت بمحادثات الشريف حسين . ماكماهون ، التي تحصل من خلالها الشريف وعدا من بريطانيا على استقلال العرب في مملكة شريفية موحدة، يكون هو ملكها، فأعلن الثورة من مكة على الأتراك عام 1335هـ، 1916م[2].

---

[1] علي الوردي، مرجع سابق، ص50 وما يليها.

[2] أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مكتبة مدبولي، القاهرة، مج1، ص146.

تلقى المدد بالسلاح، ولقب بالملك المنقذ، ووجه ابنه فيصل إلى سوريا مع الجيش البريطاني، ووجه ابنه عبد الله ليثأر لأخيه فيصل عندما أخرج من سوريا، فاتفق معه الإنجليز على أن تكون له إمارة شرقي الأردن، فأقام بعمان، وأقيم ولده فيصل ملكا على العراق بعد فترة وجيزة، وزار عمان سنة 1343هـ،1924 م، فبايعه أناس بالخلافة، وعاد إلى مكة يحمل لقب أمير المؤمنين. تنحى عن العرش لابنه علي، وارتحل إلى جدة سنة 1343هـ، 1924م، ثم إلى العقبة، ثم إلى جزيرة قبرص سنة 1344هـ، 1925م، حيث أقام بها ست سنوات، فأذن الإنجليز بسفره إلى عمان عندما مرض، ومات بها بعد ستة أشهر وأيام، ودفن بالمسجد الأقصى[1].

[1] للمزيد حول الملك فيصل الأول أنظر: أمين الريحاني، فيصل الأول، مطبعة صادر، بيروت، 1934، ص149 وما يليها.

المحاضرة الحادية عشر: القومية العربية في مواجهة الدولة العثمانية

عندما نشطت جمعية تركيا الفتاة السرية بوساطة حزبها العلني الاتحاد والترقي في سياسة تتريك العناصر العربية داخل الدولة التركية، وقتلت وشردت جمهرة من أمراء العرب، ساد في الوطن العربي شعور بالاستياء من الدولة العثمانية، فكونوا جمعية سرية خاصة بهم وانتهز البريطانيون الفرصة أثناء الحرب العالمية الأولى التي خاضها الحلفاء، ومنهم بريطانيا، ضد ألمانيا وبقية دول المحور، ووقفت تركيا مع ألمانيا، فاتصلوا بالشريف حسين ودارت مكاتبات ومحادثات عرفت بمحادثات أو مراسلات الشريف حسين وماكماهون، ومنوه باستقلال العرب وتمليكه عليهم، فأعلن الثورة من مكة على الأتراك عام1335 هـ/ 1916م، وأمدوه بالسلاح، ولُقِّب بالملك المنقذ.

قبل البدء في التفاصيل الأحداث التاريخية الدقيقة نتكلم عن قضية إعلان الدستور العثماني وما انجر بعده من تداعيات أثرت في قضية العرب والترك والعلاقة بينهما أيما تأثير، لقد كان الإعلان للدستور العثماني في يوم 23 جوان 1908م، وقد كان هذا اليوم بمثابة انتهاء الدور الديني للخلافة العثمانية والتوجه نحو العلمانية، ذلك أن السلطان عبد الحميد الثاني عمل طول فترة حكمه على تقريب العرب وتبجيلهم لتفادي أي نزعة عنصرية عرقية تحدث بين العرب والترك في أيام حكمه، بل وقربهم إليه في البلاط واهتم بالبلدان العربية النائية عليه أيضا.

ومنه فإن العرب قد توجسوا خيفة من هذه النقلة النوعية وهي إعلان الدستور وبدء العمل به، وخشوا أن يؤدي هذا التحول الجديد في السياسة العثمانية إلى إضعاف القومية العربية مقابل تنامي القوة التركية التي بدأ الترويج لها منذ عقود قريبة، فنادى الكثير من المفكرين والأدباء والمشاهير وكذا الصحفيين إلى ضرورة الإصلاح في الأوساط العربية، على مستوى الجالية في أوروبا وعلى مستوى الباب العالي وكذا على مستوى طبقات الشعب في كافة البلاد العربية [1] .

لقد كان العرب على غرار نخبة لعرب يحسون أنهم مواطنون ذوي حقوق كاملة في الدولة العثمانية على غرار ما للترك من حقوق وحريات، لهذا شارك عدد كبير من أحرار العرب ومفكريهم في نشر الأفكار الإصلاحية واستعدوا لتقديم ما يمكن تقديمه مع مساعدات، لهذا نجد الكثير منهم قد أعلن الفرحة والابتهاج بإعلان هذا الدستور الجديد حتى في المجال الأدبي والصحفي، فقد كتبوا الكثير من القصائد والمقالات التي بينوا فيها كل ذلك[2].

لم يكن المشكل في الدستور في حد ذاته بقدر ما كان مشكل الخلاف بين العصبيتين الطورانية والعربية هو مشكل في طريقة التفكير لدى بعض النخب وطريقة النضال، لذا فلا غرو أن نجد الناس قد تجمعوا على أبواب جمعية الاتحاد والترقي مهنئين ومؤيدين ومحتفلين، كما استعدوا للترشح والمشاركة في الانتخابات داخل الجمعية

---

[1] أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مكتبة مدبولي، القاهرة، طلعت حرب، د.ت، ص10.

[2] المرجع نفسه، ص11.

وداخل البرلمان الجديد في الدولة من اجل تحديد ممثلين للعرب في ذلك البرلمان، فتم اختيار النواب العرب في البرلمان بكل هدوء، وتجدر الإشارة إلى أن جمعية الاتحاد والترقي هي التي اختارت هؤلاء الممثلين عن العرب، وقد فعلت القوميات الأخرى من غير العرب والترك نفس الشي، فكان البرلمان متكونا من 273 نائبا للعرب منهم 70 أي حوالي الربع، وباقي القوميات كالألبان والبلغار واليونان لها حوالي 30 نائبا، في حين الترك استحوذوا على أكثر من نصف النواب بعدد 143 نائبا[1].

ومن ناحية أخرى مقابلة؛ نجد أن الاتجاه القومي الطوراني يستغل تجييش كل الوسائل الإعلامية المتاحة في ذلك الوقت ولا سيما الجرائد والأقلام الصحفية إلى تعزيز القومية التركية والحركة الطورانية، ليس هذا فحسب بل التحامل على بقية القوميات والعناصر الأخرى من غير الترك ومنهم العربية، وزادوا أن البعض قد حض الحكومة العثمانية على التضييق عليها ومنعها من الوصول إلى مفاصل الدولة والمناصب السامية العالية[2]، على اعتبار أنها تضمر الشر وأنها مصدر إزعاج وتشويش، وأنها لا تدين بالولاء للدولة بل تدين لأقطارها الضيقة على حسان الوطن الأم الكبيرة.

كل هذه الأحداث التي تنامت مع الوقت قد وصلت إلى تلاسن وتراشق بين الادباء والعلماء والمشاهير والصحفيين، امتلأت بها الجرائد في ذلك الوقت، كما حفظت الكثير من المقالات مستوى التفكير والخطاب في لك الوقت الذي كان محملا بالدعاوى للكراهية والعنصرية والإزاحة والإقصاء.

ومما لا شك فيه أن حركة هذه العناصر وتشددها في المقاومة والنضال أوحى للاتحاديين بضرورة القضاء على القوميات الأخرى من غير الترك والاعتماد على العناصر التركية فقط في الدفاع عن القضية الأم، وهي قضية الأتراك لا قضية غيرهم، بل أصبحوا يرون أن الدولة لهم وأن البقية انتهازيون

---

[1] أمين سعيد، مرجع سابق، ص11.

[2] المرجع نفسه، ص12.

مستفيدون منها لا أكثر، ومن هنا نتج التحول الأكبر أن شهدت الحكومة والدولة الكثير من الإقالات للعناصر غير التركية، واستبدالها بشخصيات تركية أو أبناء شخصيات معروفة.

كل هذا كان بالتوازي مع تقديم اللغة التركية عن اللغات الآخرى، وتقديم وتفضيل أطفال الأتراك عن غيرهم في التعليم والرعاية وغير ذلك، مما زاد من حقد واستياء العناصر السكانية الأخرى داخل الدولة، ولا ريب أن هذا الخلاف هو الذي جعل كل فريق يحتفي ويساند قوميته، فتسارعت الأحداث حتى اندلعت الحرب البلقانية عام 1912م، وخرج الترك من بلاد مقدونيا طريقة مؤسفة وسيئة، هو الحال نفسه فيما بعد في بقية البلدان حتى البلدان العربية[1].

بعد أن أغلق الاتحاديون الأبواب على العرب في نواديهم ومنتدياته أنشئ في كل حاضرة من الحواضر العربية في العراق والشام والحجاز واليمن وكذا القاهرة، أنشئت النوادي باسم جمعية الاتحاد والترقي يضم خيرة الأدباء والمفكرين، كما دعوا لإغلاق المقر العام للجمعية الذي كان في سلانيك، ولظروف خاصة تم نقله فيما بعد إلى الأستانة.

في حين جعل هذا الأمر الخلاف بين الطورانية والعرب ظاهرا للعلن بل وتحول إلى العداء، وقد استمر الترك في سياساتهم العمداية للعرب والقوميات الأخرى منادين في الوقت نفسه بالقومية التركية، وهو ما أدى إلى ضعفهم وتشتت جهودهم، لفقدهم الكثير من النواب البرلمانيين خاصة من الأكراد والأرمن والعرب طبعا، هؤلاء الذين طالما شكلوا كتلة المعارضة انبثق عنهم حزب الإئتلاف العثماني، انتهى هذا المشهد كله بالحرب البلقانية التي شهدت بعدها البلاد العربية نقلة أخرى وهي تأسيس جمعيات ونواد عربي خاصة بالعرب والبلاد العربية، في بيروت والقاهرة ودمشق وبغداد، وأيضا الاستانة، والهدف من هذا هو الدفاع عن حقوق العرب وتعزيز شأنهم في الدولة العثمانية، والدفاع عن لغتهم ومصالحهم، والمكالبة بمساواتهم مع الترك في الحقوق والوظائف والاستفادات المختلفة،

[1] أمين سعيد، مرجع سابق، ص13.

فأثرت هذه النقلة أيما تأثير في تكوين الرأي العام العربي في ذلك الوقت، واعتبر ذلك بمثابة النهضة العربية الجديدة، أو بداية الصحوة[1].

وفيما يلي ملخص عن عدد من الجمعيات التي أنشئت في ذلك الوقت:

1- جمعية الإخاء العربي:

تعتبر جمعية الإخاء العربي أول جمعية عربية ذات توجه قومي عربي تم تأسيسها، وقد أسست في الأستانة بعد إعلان الدستور العثماني وذاكن ذلك سنة 1908، وأنشأت ناديا لها، ويرجع تأسيسها لجهود كبار الموظفين الين عملوا في الدولة العثمانية على عهد عبد الحميد الثاني، والذين قد تخوفوا من الوضع الذي آلت إليه ظروفهم والتضييق الذي عانوا منه من طرف الاتحاديين، فاستعانوا ببعض الشبان العرب المتحمسين ذوي القدرات الأدبية والسياسية وأسسوا هذه الجمعية للدفاع عن مناصبهم، ومن أهم هؤلاء المؤسسين نذكر: عارف بك المادريني، الذي شغل منصب والي دمشق بعد ذلك، وصادق باشا المؤيد، وشفيق بك المؤيد، ويوسف بك شتوان، وشكري باشا الأيوبي، وشكري بك الحسيني.

ومن ضمن المبادئ التي تأسست عليها جمعية الإخاء العربي العثماني أنها جمعية عربية أنشئت في دار الخلافة العثمانية مؤلفة من أبناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم ونحلهم، ويحق لكل فرد من أناء العرب ممن ولدوا في أرض العرب أو من أب عربي أن يكون عضوا في هذه الجمعية، شرط أن يكون متصفا بحسن الخلق والشهرة وغير محكوم عليه بجرم جنائي أو إفلاس احتيالي، ولا ساقطا من الحقوق المدينة[2].

---

[1] أمين سعيد، مرجع سابق، ص14.

[2] المرجع نفسه، ص15.

لم تكن هذه الجمعية خارجة كل الخروج عن جمعية الاتحاد والترقي، بل كانت تعمل جنبا إلى جنب معها في سبيل المحافظة على أحكام القانون الدستوري الأساسي، وجمع كلمة الملل المختلفة والأعراق المختلفة بدون تفريق في الجنس أو المذهب أو الملة، ومن أجل تمكين الرابطة العثمانية الجامعة معهم خدمة للوطن الأم، وخدمة لإصلاح الشؤون المختلفة، ثم بعد ذلك العي لإعلاء كلمة الأمة العربية، واتخاذ جميع التدابير واستغلال كل المتاحات والمجهودات لنشر العلوم والمعرفة والانوار في أبناء هذه الأمة، وكذا تأسيس معامل ومشركات منتجة في مجال الزراعة والصناعة والتجارة، وإقناع أهل البداوة للإقلاع والتخلي عن بعض عاداتهم البالية الغير متواكبة مع الحداثة والتقدم، والسعي في تأييد مبدأ العدالة والحرية والمساوات والمواطنة، وأيضا تريخ مبادئ الاحترام والحب التعاون بين الأمم والقوميات المختلفة[1].

2- المنتدى الادبي:

يعتبر المنتدى الأدبي النسخة الثانية من جمعية الإخاء العربي، ولأنها تفتقر للتجانس والقوة والتماسك؛ فإنها لم تدم طويلا، كما أن معظم الكثير من أعضائها يفتقرون إلى الثقة فيما بيهم، فماتت وحل المنتدى الأدبي محلها.

أنشئ هذا المنتدى الأدبي سنة 1909م، وكان مؤسسه هو عبد الكريم قاسم الخليل، ويوسف سليمان حيدر، وسيف الدين الخطيب، وجميل الحسيني، ورفيق رزق سلوم، وكان هذا النادي بمثابة المرفق الذي يلتقي فيه النخبة والأدباء والشباب الذين يتبادلون المعارف والعلوم والمباحثات في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدي التي يلتقي فيها الأعضاء وغير ذلك، فنشط أعضاء المنتدى بإقامة محاضرات وإلقاء خطب في مقر هذا المنتدى، قاموا بإنشاء مكتبة يأوي إليها من لم تتوفر لهم الإمكانات لشراء الكتب والاطلاع عليها، كما كان مقر هذا النادي يحتوي على

[1] أمين سعيد، مرجع سابق، ص15.

جناح لإقامة المسافرين وفندق لاستقبال الضيوف، وقد سلم شكري بك الحسيني لعبد الكريم الخليل ستين ليرة كانت قد بقيت في رصيد جمعية الإخاء العربية.

قدم هذا المنتدى الكثير من العروض حتى المسرحية منها، وجنى الكثير من الأموال إضافة إلى الاشتراكات والمساعدات التي كان يتحصل عليها، وقد دامت مدة نشاطة حتى سنة 1915م حيث قامت السلطات العثمانية بإغلاقه[1].

3- الجمعية العربية الفتاة:

تعتبر هذه الجمعية من أعظم الجمعيات التي تم إنشاؤها بعد إعلان الدستور، فقد تم تأسيسها من قبل ثلاثة طلاب عرب في باريس، وهم الدكتور أحمد قدري، وعوني عبد الهادي، ورستم حيدر، ثم انظم إليهم رفيق التميم ومحمد المحمصاني، وعبد الغني العريسي وغيرهم آخرون، وقد كانت أهدافها ومبادؤها الظاهرة تدعم جمعية الاتحاد والترقي، ولكن في باطنها كانت تخدم مصالح العرب لا الترك ولا غيرهم.

كان من ضمن مخطها الداخلي السري أن لا يعرف الداخل فيها سوى الشخص الذي أدخله، وكانت تتألف من ثلاث هيئات: الهيئة الإدارية وقوامها 6 أعضاء، والهيئة العاملة وهي الهيئة التي تختار الهيئة الإدارية، وتتكون هذه الهيئة من مجموع الأعضاء المنتسبين للجمعية لفترة كافية من الزمن، والهيئة الثالثة تضم المنخرطين حديثا في الجمعية، وهم الذين لا يعرف بعضهم بعضا.

وكان الشعار الأول للجمعية وإن كان غير ملعن هو: العمل للنهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية، واغتنام الفرص لتحقيق هذه الأمنية، وعدم الدعوى للانفصال عن الترك أو الدولة

---

[1] أمين سعيد، مرجع سابق، ص16.

العثمانية، هذا النهج تغير بعد الحرب العالمية الأولى، فأصبحت الجمعية تنادي وتدعو للعمل على استقلال البلاد العربية وتحريرها من كافة أنواع الاستعمار والخضوع[1].

بعد عودة الأعضاء المؤسسين من باريس إلى بلاهم، تم نقل هذه الجمعية ومقرها إلى الشام، وكان ذلك سنة 1912، واتخذت مدينة بيروت مقرا دائما لها، وتولي الدكتور أحمد قري إدارة فرعها في مدينة دمشق، فاتسع نطاقها وأصبحت أقرب إلى الأوساط الشعبية والعامية وأغلبية العرب المنشغلين بالسياسة والفكر حينها، فتطايرت هرتها وتضاعف نشاطها.

4- الجمعية القحطانية:

أنشئت هذه الجمعية في الأستانة في أواخر 1909م، وقد اختلف في شأن مؤسسها الأول، فقال البعض أنه عبد الكريم الخليل، ويقول آخرون أنه خليل باشا الحمادة أسسها لما كان وزيرا للأوقاف مع السيد عبد الحميد الزهراوي، ويقول آخرون أن مؤسسها هو سليم بك الجزائري، وهي جمعية سرية غايتها بث المبادئ القوية والصحيحة للنهوض بالأمة العربي وجمع الكلمة وتقوية الصفوف.

كانت الإشارة الرمزية بين المناضلين من أعضاء الجمعية هي أن ضغط المسلم على أحد أصابع اليد لمصافحه الثاني، ثم يضع السبابة والوسطى على اليد اليسرى وخفي بقية الأصابع، وانتشرت مبادى هذه الجمعية بين الشباب العرب وضباط الجي العثماني وكثر المشتركون والمناضلون التابعون لها، وكان لكل واحد أن يدخل عضوا واحدا بدون استئذان المركز العام، ومن أهم المنضمين إليها: الدكتور عزت الجندي، وحسن حمادة، وعبد الكريم خليل، وعلي النشاشيبي وعادل أرسلان، وأمين لطفي حافظ وغيرهم، اضمحلت هذه الجمعية خلال الحرب العالمية الأولى[2].

---

[1] أمين سعيد، مرجع سابق، ص17.

[2] المرجع نفسه، ص18.

الملحق المرفق رقم 19: أسماء الصحف العربية التي ناصرت الحركة القومية

اسم الجريدة	اسم صاحبها او أصحابها	محل صدورها
جريدة المفيد	عبد الغنى العريسى وفؤاد حنتس	بيروت
« الحقيقة	كمال عباس	«
« الاتحاد العثمانى	الشيخ أحمد طباره	«
« المقتبس	محمد كرد على	دمشق
« القبس	شكرى العسلى	«
جريدة كلمة الحق	إبراهيم سليم النجار	الآستانة
« الحضارة	عبد الحميد الزهراوى	«
مجلة لسان العرب	أحمد عزت الأعظمى	«
جريدة بيام (باللغة التركية)	نجيب شقير	الآستانة
« طرابلس	كامل البحيرى	طرابلس
« الأجيال	توفيق اليازجى	«
« الوطن	باتروباولى	بيروت
« العرفان	أحمد عارف الزين	صيدا
« الأهرام	جبرائيل تقلا	مصر
« المقطم	نمر وصروف ومكاريوس	«
« المنار	السيد رشيد رضا	«
« المؤيد	الشيخ على يوسف	«
« النهضة	مزاحم الباجه جى	بغداد

5- حزب اللامركزية في الإدارة العثمانية:

كانت الجالية السورية بمصر تضم نخبة جيدة من المفكرين، فهم الذين تنبهوا إلى ما قد يولده انكسار الدولة في البلقان نتيجة الحرب، وما قد ينتج عنه من آثار سيئة، فتوجه البعض منهم إلى المفوض العثماني في القاهرة من اجل تنبيهه لما قد يحدث للاقطار العربية خاصة سوريا، منبهين أضا على الأطماع الفرنسية في كل بلاد الشام.

لطب هؤلاء النخبة من المفوض العثماني أن يكتب إلى الباب العالي من اجل تزويدهم بالسلام وبناء المخازن لتخزين المواد الغذائية والأسلحة تحسبا لما قد يحدث، واتخاذ كافة التدابير اللازمة للدفاع عن كل البلدان العربية من هجوم استعماري محتمل، خاصة أن الكثير من البلدان العربية قد قعت تحت الاحتلال الفرنسي والإيطالي مثل طرابلس الغرب وتونس والجزائر قبلهما، وبعد جدال طويل قرر هؤلاء النخبة أن يؤسسوا حزبا جديدا فأطلقوا عليه اسم حزب اللامركزية العثماني.

يهدف حزب اللامركزية العثماني إلى الدفاع عن فكرة القطرية والحكم الفدرالي، بأن تتولى كل ولاية من الولايات العربية أو غير العربية إدارة شؤونها الداخلية، لان ذلك أكثر ملائمة للسير في منهجية الإصلاح بما يتوافق مع كل قطر على حدة.

مؤسسوا حزب اللامركزية العثماني كثر اهمهم رفيق العظم والسيد محمد رشيد رضا، والدكتور سلبي شميل، واسكندر عمون، وسامي الجرديني، وحقي العظم، ومحب الدين الخطيب وآخرون، وقد اختاروا لرئاسة هذا الحزب رفيق العظم واسكندر عمون نائبا للرئيس، وحقي العظم سكرتيرا عاما، ومحب الدين مساعدا للسكرتير[1].

6- جمعية بيروت الإصلاحية:

لقد تم اختيار مدينة بيرت خصيصا لما لها من مكانة عند السلاطين العثمانيين، ولما لها من أهمية جغرافية واستراتيجية واقتصادية ومذهبية أيضا، ذلك أن أكثرية سكانها من الموارنة، لذا فقد أوجس مسلمو المدينة من هؤلاء الموارنة خوفا، خاصة وأن عددهم كان قليلا، وخافوا أن يميل الموارنة إلى الفرنسيين ويتعاملوا معم وقد يسهلوا لهم طريق احتلال كل لبنان، ولا يما في ظل عجز الدولة العثمانية على التقديم والتأخير والدفاع عن أي شبر من الأراضي العربية.

[1] أمين سعيد، مرجع سابق، ص22.

وانطلاقا من هذه المعطيات؛ فقد قرر بعض المناضلين تأسس هذه الجمعية في حدود سنة 1912، كما أبلغوا الوالي العثماني أدهم بك؛ برغبتهم في التعجيل بإدخال الإصلاحات العاجلة، فرفع أمرهم إلى الباب العالي ببرقية في شهر ديسمبر 1912، مختصرها أنه إن لم نستعجل في تنفيذ الإصلاحات فإن البلاد مفلتة من بين أدينا لا محالة، فرد عليه الصدر الأعظم كامل باشا أن يدعو الشعب إلى تقديم المطلب الإصلاحية للنظر فيها، غير ان كل تلك المحاولات تعتبر فاشلة لعدم توفر الجو الملائم للإصلاح ولتسارع الاحداث بدخول العرب العالمية الأولى في السنة الموالية[1].

معاهدة سايس بيكو:

عُقدت معاهدة سايكس ـ بيكو بين بريطانيا وفرنسا لاقتسام المشرق العربي بينهما خلال الحرب العالمية الأولى، فقد توصّلت الدولتان الحليفتان إلى هذه المعاهدة في 16 مايو 1916 م نتيجة محادثات سرّية دارت بين ممثل بريطانيا السير مارك سايْكس، وممثل فرنسا المسيو جورج بيكو، اللذين عرضا نتائج محادثاتهما السرّية على روسيا القيصرية، فوافقت عليها في مقابل اتفاق تعترف فيه بريطانيا وفرنسا بحقها في ضم مناطق معينة من آسيا الصغرى بعد الحرب. وقد عُقدت هذه الاتفاقية بين بريطانيا وفرنسا في الوقت الذي قطعت بريطانيا فيه للأقطار العربية عهودًا بالاستقلال لقاء قيام الشعوب العربية بمساندتها والوقوف إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى، وأيضًا في الوقت الذي تبودلت فيه مراسلات الشريف حسين ـ مكماهون التي أدت إلى اتفاقية أخرى تعهدت فيها بريطانيا للعرب بمساندة استقلالهم بعد انتهاء الحرب وهزيمة تركيا.

وبموجب معاهدة سايْكس ـ بيكو، قسَّمت بريطانيا وفرنسا المشرق العربي ـ باستثناء شبه الجزيرة العربية ـ إلى خمس مناطق هي: السواحل اللبنانية والسورية وهذه أُعطيت لفرنسا، والعراق أُعطي لبريطانيا. وبالنسبة لفلسطين فقد اتُّفق على إنشاء إدارة دولية فيها، لكن ثبت أن التدويل كان مجرد خطوة أولى تبعتها خطوة وعد بلفور ثم الانتداب البريطاني فيما بعد، أما المنطقتان الرابعة والخامسة،

[1] أمين سعيد، مرجع سابق، ص26.

فقد اتفقت بريطانيا وفرنسا على الاعتراف بدولة أو حلف دول عربية مستقلة برئاسة رئيس عربي فيهما على أن يكون لفرنسا في إحدى المنطقتين (المنطقة الداخلية السورية) حق الأولوية في المشاريع والقروض المحلية والانفراد بتقديم المستشارين والموظفين. وكذلك الأمر بالنسبة لبريطانيا في المنطقة الداخلية العراقية.

والجدير بالذكر أن هذه المعاهدة ظلّت سرًا لا يدري به العرب، إلى أن نشرتها الحكومة السوفييتية (سابقا). وسارعت بريطانيا عندئذ إلى طمأنة العرب إلى أن المعاهدة أصبحت ملغاة بعد انسحاب روسيا من الحرب وانضمام العرب إلى جانب الحلفاء.

قائمة المراجع:

- *Eric Anceau, Bonaparte et l'Égypte, Clio. V. C, n. d.*
- *Michael Angold, Turning points in history: the Fall of Constantinople, January 2013.*
- *Pascal CYR, L'expédition militaire de Bonaparte en Egypte (1798-1799), Mémoire de maîtrise en histoire, Département d'histoire et de sciences politique de l'Université de Sherbrooke, Canada, 2001.*
- إبراهيم حليم بك، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988.
- ابن أبي الحديد المدائني، حملات الغزو المغلولي للشرق كما عاشها المدائني، تعريب مختار جبلي، دار لارماتون، باريس، 1995.
- أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط، 1991.
- أحمد الشويخات وآخرون، الموسوعة العربية العالمية، أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 2004.
- أحمد القطان ومحمد الطاهر زين، إمام التوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، دار الإيمان للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001.
- أحمد طحان، تجاعيد في وجه الزمن العربي، دار الفارابي، بيروت، 2001.
- أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ الإسلامي، ط2، دار الشروق، القاهرة، 1993.
- إسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، ط1، مكتبة العبيكة، الرياض، 1997.
- أمين الريحاني، فيصل الأول، مطبعة صادر، بيروت، 1934.
- أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مكتبة مدبولي، القاهرة، مج1.

- باسم حمزة عباس، "سياسة إيران العسكرية والمذهبية والداخلية وأثرها على السياسة الخارجية في عهد الشاه إسماعيل الصفوي 1501- 1524"، مجلة الدراسات الإيرانية، عدد 10- 11.
- بثينة عباس الجنابي، "نظام الحكم والإدارة العثمانية في الوطن العربي"، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 71، 2011.
- بليل رحمونة، مشروع محمد علي النهضوي، ضمن محاضرات الدولة العثمانية والمشرق العربي، جامعة مصطفى اسطمبولي، 2019- 2020.
- جميل بيضون وآخرون، تاريخ العرب الحديث، ط1، دار الأمل، 1991.
- حسن الضيقة، الدولة العثماني –الثقافة. المجتمع والسلطة–، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1997.
- خالد فهمي، كل رجال الباشا محمد علي وجيه وبناء مصر الحديثة، ترجمة شريف يونس، ط2، دار الشروق، د.م، د.ت.
- رائد سامي حميد موسى الدوري، الدولة العثمانية في عهد السلطان مراد الأول 760-791هـ/1359-1389م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة تكريت، 2011.
- رجب محمود إبراهيم بخيت، تاريخ المغول وسقوط بغداد، مكتبة الإيمان، المنصورة، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، 2010.
- طالب محيبس حسن الوائلي، "هزيمة العثمانيين في أنقرة، دراسة في مقدمات الصدام التتاري"، مجلة كلية التربية، العدد 04.
- عايض بن خزام الروقي، حروب محمد علي في الشام وأثرها في شبه الجزيرة العربية 1831-1839، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، منشورات جامعة أم القرى، مركز دراسات الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، 1986.
- عبد القادر توفيق الشلبي الطرابلسي ، الدر الحسان في فضائل سلاطين عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.

- عبد الله إسحاق، بغداد بين صفرين، جريدة البيان الالكترونية، الإمارات العربية المتحدة، 12/ 04/ 2003.
- علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث –قصة الأشراف وابن سعود–، د.ت.
- علي شاكر، ولاية الموصل العثمانية في القرن السادس عشر، دار المنهل، عمان، 2011.
- علي محمد الصلابي، فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 2006.
- فاطمة الزهراء آيت بلقاسم، "نظام الحكم العثماني في الجزائر وتونس –دراسة مقارنة–"، مجلة قرطاس الدراسات الحضارية والفكرية، عدد4، 2017.
- لويس دوكورانسي، الوهابيون –تاريخ ما أهمله التاريخ–، ترجمة مجموعة من الباحثين، رياض الريس للكتب والنشر، د.ت.
- محمد خليل الهراس، رد على مقال محمد البهي في نقد الوهابية، دار الكتاب العربي، د.م، د.ت.
- محمد سعيد العشماوي، مصر والحملة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999.
- محمد عبد الحميد الرفاعي، قيام الدولة العثمانية واتساعها، موقع طريق الإسلام، 27/ 11/ 2013.
- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981.
- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العثمانية العلية، KTAB INC، 2014.
- محمد نامق كمال، فاتحة الفتوحات العثمانية، تعريب عبد الله المخلص، المطبعة الوطنية، حيفا، 1909.
- محمود السيد الدغيم، مختصر التاريخ العثماني منذ سليمان شاه حتى محمد الفاتح، 13/ 09/ 2006.

- محمود السيد الدغيم، مختصر التاريخ العثماني منذ سليمان شاه حتى محمد الفاتح، 13/ 09/ 2006.
- مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000.
- نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في العصر الحديث، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1987.
- نواف أحمد عبد الرحمن، الموجز في التاريخ الإسلامي، دار المناهل، د.م، 2015.
- هاشم ناجي، الوهابية بتقارير القنصلية الفرنسية للغداد 1806- 1808، الوراق للنشر، بغداد، 2015.